المكتبة العالمية
للفتيات والفتيان

طفل من غير أسرة

دار العلم للملايين

طفل من غير أسرة

دار العلم للملايين

هذه الرواية

يتلقَّى ريمي الصغير ذات يوم نبأً فظيعاً: إنه طفلٌ لقيط وإن «أمه» التي ربَّتْهُ صغيراً لم تكن أمه الحقيقية...

وشاءت الظروف أن تقتلعه من حضن «أمه» ليعيش في كنف رجل مجهول هو الفنان العجوز فيتاليس.

حياة جديدة قاسية أحاطت به... ومع فيتاليس وبدونه طاف أرجاء فرنسا طريداً، شريداً. كان ولداً من غير أسرة.

وحاول أن يجد والديه الحقيقيين...

وأخيراً حدثت المفاجأة، وتمّ لقاء عجيب!

المكتبة العالمية
للفتيان والفتيات

طفل من غير أسرة

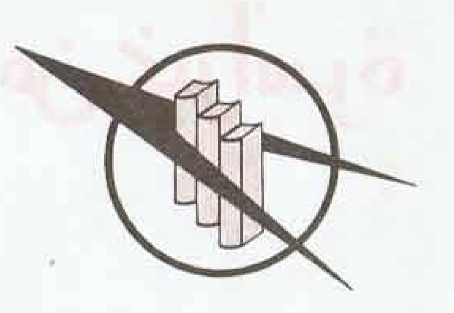
تأليف
هيكتور مالو

تعريب وتلخيص
خليل الهنداوي

دار العلم للملايين

ص. ب ١٠٨٥ - بيروت
تلفون: ٢٢٤٥٠٢ - ٢٩١٠٢٧

دار العلم للملايين
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر
شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو
ص.ب ١٠٨٥ - تلفون: ٣٠٤٤٤٥ - ٨١٦٦٣٩
برقياً: ملايين - تلكس: ٢٣١٦٦ ملايين
بيروت - لبنان



الطبعة الأولى ١٩٧٩
الطبعة الرابعة
حزيران (يونيو) ١٩٨٦

١. في القرية

أنا ولدٌ لقيط!

ولكنّي، حتى الثامنةِ من عُمُري، كنتُ أعتقدُ، شأنَ غيري من الأطفال، بأنَّ لي أمّاً، لأنني حين كنتُ أبكي كنت أجدُ امرأةً تضمُّني إلى ذراعَيْها بحنان، وهي تهزّني، وإذ ذاك تهدأ دموعي.

لم أنَم في سريري، قبل أن تَضُمَّني امرأة. وحين كانت الريحُ تذرو الثلجَ على ألواح الزُّجاج البيضاء، كانت تَلُفُّ قدميَّ بيدَيْها لتدفِّئهما وهي تُغَنّي لي أغاني لا يزال بعضُ كلماتها يَرِنُّ في ذاكرتي!

وحين كنتُ أرعَى بقرتَنا، على طول الطّرُقِ المكسوَّة بالعشب أو في مَسايل الماء، وتفاجئني العاصفةُ بأمطارِها، كانت تركض إليّ وتلفُّني برداء من الصوف، يحمي جسدي من البرد.

وأخيراً، حين أتخاصمُ مع أحد رفاقي، كانت تقصُّ عليَّ

شيئاً من أنباء همومها، وفي كل مرة، كانت تجد الكلماتِ العَذْبَةَ لتَسْليَتي.

إزاء هذه المظاهرِ الرقيقة، الحافلةِ بالعطف والحنان، كنت أعتقد بأن هذه المرأة هي أمي.

وذاتَ يومٍ، تبيَّنَ ليْ أنها ليستْ بأمّ، وإنما هي حاضنة، وكيف كان ذلك؟

قَرْيتي، بل القريةُ التي نشأتُ فيها (لأنني لا قَرْيَةَ لي، ولا مكانَ وُلِدْتُ فيه، وليس لي أب ولا أم) هذه القريةُ تدعى «شافانون» وهي قريةُ الفقرِ والبؤسِ في قلب فرنسة.

وهذا الفقرُ لا يعودُ إلى كسَلِ أهلِها، وإنما يعودُ إلى فقر أرضها العارية.

ليس فيها إلا بعضُ حقولٍ مزروعة؛ وأما حقولُها الغالبة فهي أرضٌ جرداء لا تُنْبِتُ عشباً، ولا تَحْضنُ زرعاً.

وعلى هذه المرتفعات الجرداء، تهبُّ رياحٌ عاصفة، تحني الأشجار، وتهصر الفروعَ والأغصان.

وفي بطون أرضِها المنخفضة، وحولَ مسايلِ الماء، تنمو أشجارُ البلُّوط، والسِّنديان الضخمة.

في أحد المنحدَرات، على ضِفّة ساقية، تسرع مياهُها في

الهرب والضياع، كان ينهض البيتُ الذي قَضَيْت فيه أعوامي الأولى.

منذ ثمانية أعوام، لم أجدْ رَجُلاً يَدْخلُ هذا البيت؛ مع أن أمي لم تكن أرملة؛ لكنَّ زوجَها الذي كان حجّاراً، شأنهُ شأن أكثر عمّالِ تلك المنطقة، كان يعملُ في پاريس؛ وهو لم يَرْجعْ إلى القرية، منذ تفتَّحَ وعيي ونظري على ما حولي. ولكنه، كان بين الحين والحين، يبعثُ بأخباره، عن طريقِ أحدِ رفاقهِ الذي كان يتردَّد على القرية.

كان يقول للزوجة:

– «أيتها الأم بربران! إنَّ زوجَك بخير. وكلفني بأن أُخبرك أن عملَهُ حسن جداً، وهذه الدراهم منه... أرجو أن تَعُدِّيها!»

هذا هو كلُّ شيء... وكانت هذه الأنباء تُبهج الأمَ، فزوجُها يتمتّع بصحة جيدة، والعملُ يعطي ثمراته، وهو يكسب ما يعيش منه.

وإذا كان السيد بربران أطال مُقامَهُ في پاريس، فليس من الحقِّ الاعتقاد بأنه على علاقةٍ سيئةٍ مع زوجته. ولكنْ هُوَ العملُ الذي يُجبرهُ على الإقامة.

إنه حين يدخل طَوْرَ الشيخوخة، يعود ليحيا مع

زوجته العجوز، وبفضْلِ الدراهمِ التي يجنيانها الآن سيعيشان في أمنٍ من البؤس، طوالَ أيامها التي تَضعُفُ فيها القوة وتتلاشى الصحة.

* * *

في يوم من أيام نوفمبر، عند هبوط المساء، رأيتُ رجلاً لا أعرفُهُ يقفُ عند الباب حيث كنتُ مشغولاً بكَسْر حُزْمَة قضبان، ومن غير أن يجتاز البا ، نَظَرَ إليَّ وسألني:

- «هل السيدة بربران تقطُنُ هنا!»

انني لم أجد في حياتي مثل هذا الرجل. كانت تلطِّخُهُ بُقَعٌ من الوحل. بعضُها لا يزال ندياً، وبعضُها يابس، من أخمصِ قدميه حتى رأسِهِ، وبعد إمعان النظر فيه قدَّرْتُ أنه لا بُدَّ كان يمشي على طُرُق رديئة.

قال لي:

- «إنني أحملُ إليها أنباء من باريس.»

هنالك، كلماتٌ بسيطةٌ جداً، طرقَتْ أُذُني أكثَر من مرة، لكن اللهجة التي عبَّر بها تختلفُ عن هذه الكلمات:

- «إن زوجَكِ بخير. والعمل حسن.»

صاحت الأم بربران، وهي تشبك يَدَيْها:

- «آه، يا إلهي! إن كارثةً أصابته!»

- «أجل. ولكن لا حاجةَ إلى الخوف. إنه جريح. تلكَ هي الحقيقة، لكنه لم يَمُتْ. والآن، هو في المستشفى، كنت جاره في السرير، وحين خرجتُ أوصاني بأن أحملَ إليكِ هذه الكلمات. والآن، لا أستطيع أن أتأخَّر، لأنَّ طريقيَ طويل.»

ولكنَّ الأم بربران التي كانَتْ تَوَدُّ أن تسمَعَ الكثيرَ من أنباء زوجها، طلبت إليه المبيتَ عندها؛ لأن الطُّرُقَ سيئة، والذئابُ كثيراً ما تطوفُ في الغابة.

وجلس قريباً من المدفأة، وراحَ وهو يأكل، يقصُّ علينا كيف وقعتِ الكارثة... إنَّهُ محطَّم؛ ولما وجدهُ رَبُّ المصنع جريحاً في مكانٍ يجب ألاَّ يكونَ فيه، أبى أن يُعَوِّض عليه بشيء ما.

وقال الرجل:

- «مسكين بربران - إنه لا حَظَّ له!»

وردَّد هذه الكلمة بأسىً عميق:

- «إنَّهُ لا حَظَّ له!»

وأتمَّ كلامه:

- «ومع ذلك، أثَرْتُ عليه بأن يُقيمَ دعوى على

صاحب المصنع.»

– «دعوى! لكنها تكلّفُ كثيراً.»

– «نعم، ولكن حين يربحُ هذه الدعوى يُغطّي هذه التكاليف!»

وَدَّتِ الأم بربران أن تذهَبَ إلى باريس، ولكن السفرةَ تكلِّفُ وتُرْهِق.

وفي الصباح، هبَطْنا إلى القرية، لاستشارة راعي القرية؛ فلم يُرِدْ أن تسافر، قبل أن تتأكّدَ من أن سفرَها يَنْفَعُ قضيةَ زوجها.

وكتبَ راعي القرية إلى المستشفى الذي ينزلُ فيه زوجُها، فأتاه بعد أيام جوابٌ يقول بألاّ حاجة الى سفرِها، وأنَّ عليها أن ترسِلَ بعضَ المال إلى زوجها، ليتمكّن من إقامة الدعوى.

وراحتِ الأيامُ والأسابيعُ تكرُّ، وبين الحينِ والحينِ تأتي الرسائلُ تطلبُ المزيدَ من المال. حتى جاءتِ الرسالةُ الأخيرة المؤلمة تقول:

– «إذا لم يكن عندكِ مَزيدٌ من المال فبيعي البقرة!»

ولا يدري معنى بيع البقرة في القرية إلاّ سُكّانُ القُرى.

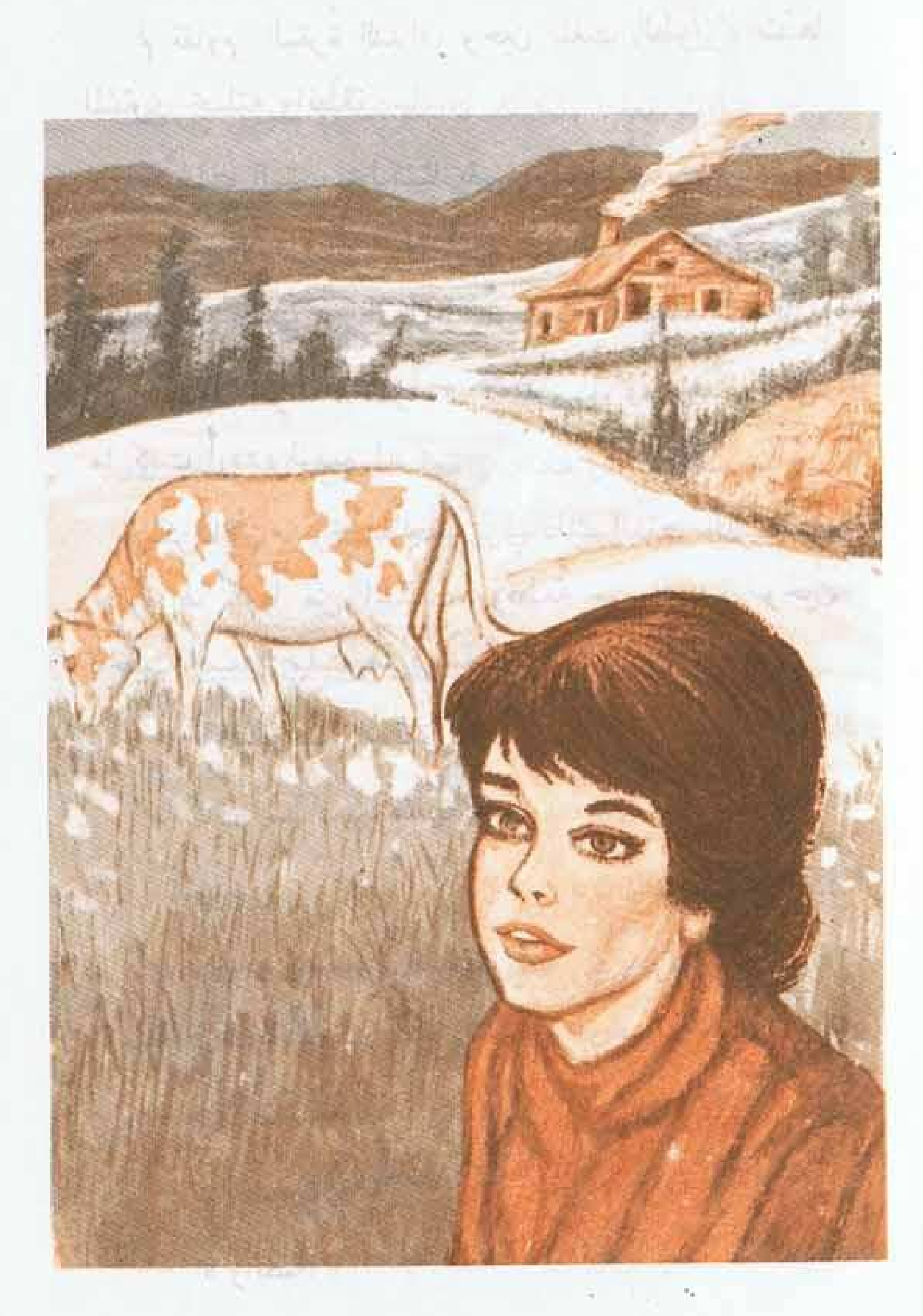
البقرة هي حيوان مُجْتَرٌّ. هي للمتنزِّهِ حيوانٌ لا أجملَ منه حين يرفع مِشْفَرَيْهِ، من بين الأعشاب، مبلَّلَيْن بالندى. وهي لطفل المدينة، ينبوعُ اللَّبَن والجُبن. وأما، عند القَرَويّ، فهي أكثر وأكثر.

فالقرويُّ، مهما بلغَ من الفقر، يَظَلُّ آمناً، من الجُوْع، ما دامَ يملكُ بَقَرةً في زريبتِهِ.

بحبلٍ حقيرٍ معقود على قرْنَيْ البقرة، يستطيعُ الصغير أن يقودَها إلى الطرق المَكْسُوَّه بالعشب، حيث لا يملكُها انسان. وفي المساء تأخذُ الأسرةُ من لبنها وزبدتها إداماً لها. فالأبُ، والأمُّ، والأطفالُ، والكبارُ والصغارُ، وجميعُ الناس يعيشون على ما تجودُ به البقرة.

لقد كنّا، أنا والأمُّ بربران، نعيشُ على بَقَرتنا، حتى هذه اللحظةِ التي لم أكن ذُقْتُ فيها للّحم طعما... إنها لم تكن مُرضعتَنا، فقط، بل كانت رفيقَتَنا وصديقَتَنا، إذ لا ينبغي أن نتخيَّلَ أن البقرةَ حيوانٌ، بل هي على نقيضِ ذلك، حيوانٌ حافل بالفطنة، والأخلاق الكريمة.

إننا نلاطفُها، ونكلِّمها، فتَفهمُ منا. وهي بعينيها



وحين كنتُ أرعى بقرتنا...

الواسعتين، المستديرتين، الطافحتين رقةً تعرف كيف تُسمعنا ما تريد، أو ما تشعر به.

وأخيراً، كنّا نحبّها، وكانت تحبنا...

والآن، حانَ وقتُ انفصالها عنا، لأن بربران يطلبُ أن تباع.

وجاء المشتري، من أقصى القرية، وبعد أن نظر إليها، وفحصها فحصاً دقيقاً، مَطَّ شفتيْهِ، وسخرَ من هذهِ البقرةِ العجفاءِ التي لا تصلُحُ للَّحم، ولا للحليب.

ولكنَّه، سيشتريها، إشفاقاً على صاحبتها البائسة...

أَما البقرة، وكأنها أحسَّت بما يدورُ حولها، فقد أبت أن تَخْرُجَ من الزريبة، وراحت تُرْسِل خواراً حزيناً.

والتفَتَ إليَّ المشتري، وقال لي:

– « قف خَلْفَها، وٱنْهَرْها!! »

وناولني السَّوطَ الذي كان يلُفُّه حول عنقه.

صاحت الأم بربران:

– « أما هذا فلا..! »

وتناولَتْ رَسَنَ البقرة بيدها، وهي تُهَدْهِدُها:

– « هيّا! يا حسنائي! تعالَيْ! تعالَيْ! »

لم تقاومِ البقرةُ النداءَ، وحين بلغتِ الطريقَ، شدَّها المشتري بحبلتِهِ وانطَلق بها...

ودخلتُ البيت. ولكننا بقينا نسمعُ خُوارها.

والآن، لا حليبَ، ولا زُبدَة. في الصباح كِسْرَةُ خبز، وفي المساء حبَّاتٌ من البطاطا مرشوشةٌ بالملح.

« بدون بقرتنا « شقراء »، لا حليب، ولا زبدة. » هذا ما كنت أُردده لنفسي!

لكن الأمَّ بربران فاجأتني، في ذلك اليوم؛ طلبت من جارة لها كوباً من الحليب، وقطعةً من الزبدة. وحين دخلْتُ البيتَ حملتُ لها قَبْضَةً من الدقيق، وقلت لها:

- « إليك هذا الدقيقَ! »

ما كان أشدَّ سرورها به!

سألتني:

- « ماذا يصنعون بالدقيق؟ »

- « خبزاً. »

- « وأيضاً.. »

- « عصيدة! »

- « وأيضاً! »

- « لا أدري. »

- « إنك تعلم، ولكنَّك لا تجرؤ أن تقول! إن هذا اليومَ يومُ عيد. وأنت تدري أن ليس في بيتنا حليبٌ ولا زبدة. ولكن... أنظُرْ هناك!

ألقيتُ نظري حيث أشارَتْ، فإذا بي أرى زُبْدةً وبيضاً...

وكنا نشمُّ من كل مكان رائحةَ البيض والحليب... لقد عجنَتْهُ، وطرحَتْهُ على النار. وسطعَتْ منه رائحةٌ طال عَهْدُنا بها...

ونحن، على هذه الحالة، إذا بِعَصاً تضرب الباب. وإذا بالباب يُفتح.

صاحت الأم بربران دون أن تلتفت:

- « مَنْ هناك؟ »

ودخل رجل؛ وعلى ضوء النار التي انعكست عليه لمحتُهُ يرتدي قميصاً أبيض، ويُمسك بيده عصاً ضخمة. وقال بلهجة قاسية:

- « أنتم في عيد، إذاً؟ ألا تَسْتحون؟ »

وهتفت الأم بربران:

– «آه، يا إلهي! هذا أنت يا زوجي الحبيب!»

ثم أ كت بذراعي، ودفعتني نحو هذا الرجل الواقف على الباب. وقالت:

– «هذا هو أبوك.»

٢. الأب المربّي

اقتربتُ من الرجل لأعانقَهُ، ولكنّهُ، بطَرَفِ عصاه، أوقَفَني.

– «مَنْ هو هذا الصبي؟»

– «هذا ريمي.»

– «لقد قلتِ لي...»

– «أجل. ولكن ليس بحقيقيّ؛ لأنه...»

– «هذا ليس بحقيقي.»

وتقدّم نحوي. بعصاهُ المرفوعة. وبصورةٍ لاشعوريةٍ، ابتعدتُ عنه.

ماذا صنعتُ! وأيّ ذنب اقترفت؟ لماذا غضِبَ حين دنوتُ منه لأعانقَهُ؟

ولكنْ، لم يكنْ، هنالكَ، وقتٌ لفَحْص هذه الأسئلةِ

التي تزاحَمَتْ في رأسي.

– «لقد رأيتكما تهيئان أكلةَ هذا اليوم. لا بأس. إنني جائع. وأين الحساء؟»

– «كنت أصنع فطائر.»

– «أرى ذَلكَ. ولكنْ ليس هذا طعاماً يليقُ برجل قطع الأميال سعياً على رجليه.»

– «ولكني لا أملك شيئاً. وما كنا على علم بمجيئك.»

– «لا تملكون شيئاً؟ حتى الحساء؟»

ونظر حوله. فقال:

– «هذه زبدة!»

ورفع عينيه إلى السقف، إلى المكان الذي كانت الجرَّةُ تُرْفَعُ عليه. ولكن، منذ زمن طويل، كانت الجرَّةُ فارغة. ولم يكن، هناك، إلا بضعُ بَصَلات ولُقَاطاتٍ من الثوم؛ فقال:

– «أليس هذا بكافٍ؟ هيّا، أعدّي لنا طعاماً يليق بجائع!»

وكنت ملتزماً مكاني، الذي جرَّتني إليه عصاه، ولم

أنقطعْ عن التأمل فيه.

إنه رجلٌ في الخمسينَ من عمره، ذو وجهٍ قاسي الملامح، يَحْملُ رأساً مائلاً إلى كتِفهِ اليمنى، على أثر جُرْح أصابه.

وفي لحظةٍ أخرى، كان متأكِّداً بأنني لا أرى في نُزولهِ علينا إلا كارثة. ولم أقترب من المائدة، ولم أتناوَلْ كثيراً ولا قليلاً. لكن الفكرة التي شغلتني هيَ أنَّ هذا الرجلَ الذي يبدو بهذه الصَّرامة وهذه القسوة، إنما هو أبي.

– « أبي! أبي! »

تلك هي الكلمةُ التي كنتُ أُردِّدُها بصورة لاشعورية.

وأردتُ أن أعانقه، فأبعدني عَنْه بطَرَف عصاه، لماذا؟ إن الأم بربران لم تكن لِتَصُدَّني حين أعانقها. بل هيَ، على نقيض ذلك، كانت تضمُّني بذراعَيْها، وتشدُّني إلى صَدْرها.

وسألني:

– « ألستَ جائعاً؟ »

– « لا. »

– « إذاً، إذهَبْ لتنام، ونَمْ سريعاً، وإلاَّ أَثرْتَ غضبي. »

وأشارتْ إليَّ الأم بربران بأن أُطيعَ أمره، لكنَّ هذا

الأمرَ لم يكن مُجْدِياً. فأنا لم أُفكِّرْ في أن أثور.

وكما كان الأمرُ في كثير من بيوت الفلاحين؛ كان مطبخُنا هو نَفْسُهُ غرفةَ نومِنا. في تلك الزاويةِ سرير الأم بربران، وفي الزاوية المقابلة سريري.

رُحْتُ أنزعُ عني ثيابي، وتمدَّدْتُ على سريري، لكنَّ النومَ كانَ عَصِيّاً.

لا ينامُ الانسان بمجرد أن يُؤْمَر. وإنمّا ينام، لأنهُ محتاجٌ إلى النوم والراحة. ولم أكنْ، في تلك الحالة، نعسانَ، ولا مُرتاحاً. بل كنتُ، على العكس، فريسةَ الاضطراب والشقاء. كيف يكونُ هذا الرجلُ أبي وهو يعاملني بقسوة؟!

دَسَسْتُ أنفي في الوسادة، وجَهدْتُ أن أَطرُدَ هذه الوساوسَ عني لأنام. كلُّ ذلك كان يستحيل عليَّ. النُّعاس لم يجيء، واليقظة لم تكن كاملة. وشعرت أن ثمة من يقترب من سريري، وأنا واثق ان المقترب لم يكن الأم بربران.

وبنفخةٍ حارة سرت في شَعْري، سألني صوت مخنوق:

– « هل نمت؟ »

لم أُجبْ. لأنَّ كلمتَهُ « سأغضب » لا تزالُ ترنُّ في أذنيَّ.

قالت الأم بربران:

– «أجل، لقد نام... تستطيعُ الكلامَ دون أن تَخْشَى أن يسمع.»

حقاً، لقد كان ينبغي لي أن أعترفَ بأنني لم أنم؛ ولكني لم أجرؤ.

وسألتْهُ الأم بربران:

– «ودعواك، أين انتهت؟»

– «الدعوى خَسِرْتُها، لأنَّ القضاةَ حكموا بأنَّ ما أصابني كان صُنْعَ يدي وخطإي... لذلك، لا تَعويض! ضاعَ المال، ووقعنا في هاوية البؤس والحاجة. وكأنَّ ذلك لم يكفِني، حتى جئتُ فوجدتُ ولداً... لماذا لم تَصْنعي ما أمرتكِ به؟»

– «لأنني لم أستطع.»

– «ألم تقدري أن تحمليه إلى ملجأ اللقطاء؟»

– «ولكن، أنا لا أُوافق على أن أهجرَ ولداً رضعَ من لبني، وأَحْبَبْتُه حُباً كثيراً.»

– «لكنه ليس بولدك.»

– «وأخيراً، أردت أن أنفذ طَلَبَك، ولكنّه أصيب بمرض.»

– «أصيبَ بمرض؟»

– «أجل، إنه مريض، وليست هذه هي الساعة الملائمةَ لحملهِ إلى الملجأ، حتى نقتله.»

– «وحين يشفى؟»

– «لن يكون شفاؤُهُ كاملاً. بعد هذا المرض، سينتابُهُ مَرَضٌ آخر. إنه يَسْعل... يسعل حتى يكاد صدرُهُ ينفجر. بهذا المرض مات ولدُنا نيقولا الصغير. يخيَّل إليَّ أنني إذا حملتُهُ إلى المدينة، سيُدرِكُهُ الموتُ عاجلاً.»

– «وبعد ذلك؟»

– «الزمن يمشي...»

كنت أسمع هذا الحوار... وازدَدْتُ يقظةً للاستماع.

– «كم عمر هذا الصغير؟»

– «ثمانية أعوام.»

– «حسن. إنه سيذهبُ إلى المكان الذي ذهبَ إليه من قبل.»

– «ولكنَّك لن تفعل ذلك.»

– «لن أفعل ذلك. ومن ذا يمنعُني عنه؟ هل تعْتقدين بأننا نستطيع الإبقاء عليه هنا؟»

وهنا، ضاقت عليَّ أنفاسي... وكاد الحزنُ يَخْنقني.

وأتمّت الأمّ بربران كلامَها:

- « كم غيَّرتْكَ باريس! ما كنتَ تنطقُ بهذه اللهجةِ قبلَ أن وصَلْتَ إلى باريس.»

- « قد يكونُ ذلك. وإذا غيَّرَتْني باريس، فإنها أيضاً شوَّهَتْني. كيف نكسَبُ معاشَهُ، ومعاشَكِ، ومعاشي؟ نحن لا نملكُ مالاً. والبقرةُ قد بيعت. أيلزَمُنا، في الوقتِ الذي لا نجدُ فيه طعامنا، أن نحضُنَ ولداً ليس بولدنا؟»

- « ولكنّهُ ولدي..»

- « لا. ليس بولدِكِ ولا بولدي. إنه ليس ولداً قروياً. لقد تأمّلتُهُ ساعةَ العشاء. إنهُ لطيف، نحيف، لا ذراعَ لهُ ولا ساق!»

- « ولكنه أجمل ولد في القرية.»

- « جميل. لا أقول لا... ولكنه جامد. هل تستطيعُ رِقّتُهُ أن تعطيَهُ الطعام؟ إنه ابنُ المدينة، ولا محلَّ له عندنا.»

- « أقول لك: إنه ولدٌ شجاع. فَطِنٌ كالهر. يملكُ قلباً خيِّراً. إنه سيعملُ من أجلنا.»

- « بانتظار ذلك، يجبُ علينا أن نعملَ من أجله. وأنا، لا أستطيعُ العمل.»

- « وإذا ظهرَ أهلُهُ، فماذا نقولُ لهم؟»

- « أهْلُهُ؟ هل لَهُ أهل؟ لو كان له أهلٌ لبحثوا عنه! لقد وجدناه منذ ثمانيةِ أعوام، ولم يسألْ عنهُ أحد. إنَّ من الحق أن نعتقدَ بأن أهلَهُ سيأتون، ويُقَدِّمون لنا مكافأةً على عملنا... لا، لن يفتِّش عنه أحد. وما يُدرينا أنهم ماتوا.»

- « وإذا جاءوا يوماً، وسألوا عنه؟ إن نفسي تحدِّثُني بأنهم سوف يأتون.»

- « يا للنساء العنيدات!»

- « وأخيراً إذا جاءوا؟»

- « غداً، سأحمله إلى مختار القرية...»

وأغلق البابَ، وخرَجَ وَحْدَهُ ليلتقيَ بأصدقائه.

رفعتُ رأسي، وصِحْت:

- « أمي!»

وأقبلَتْ عليَّ بلهفة.

- « هل تتركينه يحملني إلى الملجأ؟»

- « لا.. لا يا ربي الصغير! »

وعانقتني بحنان... وردّ هذا الحنانُ عليَّ شجاعتي وثقتي، بينا راحَتْ دموعي تنهمر.

وسألتني بلطف:

- « ألم تنم؟ »

- « ليست بخطيئتي. »

- « إذاً، لقد سمعْت! »

- « سمعْت... لستِ أنتِ بأمي، وليس هو بأبي... »

لقد أحزنني ألاّ تكونَ هي أمي، كما سرَّني أنّهُ ليس بأبي.

لكن الأم بربران تظاهرت بأنها لم تنتبه إلى ما قلت.

وراحت تقول:

- « سأعطيكَ الحقيقة.. إنني لست بأمِّك الحقيقية. أما أمُّكَ الحقيقية فلا يعرفُها أحدٌ. هل هي حَيَّة، هل هي مَيْتة؟ لا يدري إنسانٌ مصيرَها.

في صباح يوم، في باريس، كان زوجي ذاهباً إلى شغلِهِ، وهو يمشي في شارع عريض، تنهض الأشجار عن جانبيه، وإذا بهِ يسمَعُ صراخ طفل، يأتي من باب بستان.

اقتربَ من الباب، فشاهدَ طفلاً مطروحاً على عَتَبة الباب. فالتفَتَ حوله، لينادي أيَّ إنسانٍ عابر. فلمح رجلاً يخرج من وراء جذْعِ شجرةٍ، ويَعْدو إلى بعيد.

لا شكَّ أن هذا الرجل كان يترصَّد، ليرى هل سيجدُ أحدٌ الطفلَ الذي طَرَحَهُ على عَتَبة الباب.

ارتبكَ زوجي، وزادهُ ارتباكاً أنَّ الطفلَ كان يَصْرُخُ صراخاً شديداً متتابعاً، كأنه يشعُرُ بأنَّ ثمة من جاءَ ليُنقذَهُ، وألاّ سبيلَ إلى تَرْكه.

وبينما كان زوجي يفكِّرُ في شأنه، اجتمع حوله عددٌ من العمال وراحوا يحثُّونه على تسليم الطفل إلى مخفر الشرطة.

كان لا يزال يصيح. لا شكَّ أنه كان يتألَّم من لَذْع البرد. وفي المخفر على الرغم من الدفء، ظلَّ الطفل يصيح.. لعَلَّهُ يشكو الجوع.

ذهبَ زوجي يبحث عن امرأة تستطيع أن تُرْضِعه... فما إن أَحسَّ بالحليب، حتى أخذت شفتاه الجافتان ترشفانه بنهمٍ شديد.

لقد كان طفلاً في الشهر الخامس، أو السادس، وَرْديَّ اللون، مُكْتَنِزَ اللحم. أما ثيابُهُ فكانت تَدلُّ على أن أهلَهُ من الأغنياء.

إذاً، هو طفلٌ سَرَقوه، ونبذوه.

هذا ما ارتآه مفوَّضُ المخفر.

ماذا يصنعون بهِ؟ بعد التحقيق قرَّرَ المفوَّض حَمْلَهُ إلى ملجأ اللُّقَطاء إذا لم يَتَبرَّعْ واحدٌ من الحاضرين بإيوائهِ عندَهُ.

إنَّهُ ولدٌ جميلُ الطَّلْعة، متألِّقُ العَيْنين، ليس من العسير تَرْبِيَتُهُ؛ وأما أهلُهُ، فلا بُدَّ أن يبحثوا عنه، فإذا وَجَدُوه كافأوا مَنْ راح يرعاهُ مكافأةً سخيّةً.

تقدَّم زوجي، من المفوَّض، وأبدى رغبتَهُ في اقتناء الطفل! فاستلَمَه، وعاد به إليَّ.

لقد كان لي طفلٌ في عمره.

رُحْتُ أرعى الإثنين معاً.

وهكذا غَدَوْتُ أماً لك.»

- «أوه، يا أُمّي!»

- «وبَعْدَ ثلاثةِ أشهرٍ فَقَدْتُ طفلي؛ فإذا بي أزدادُ تعلُّقاً بك. لقد نسيتُ أنك لستَ بطفلي. ولكنّ زوجي لم يَنْسَ ذلك. وحين قطع الرجاءَ من ظهور أهلك، أراد أن يحملك إلى الملجأ. وقد سمعت بأُذنيك أنني لم أُوافِقْهُ على

ذلك، ولم أُطِعْهُ.»

- «أوه، لا! أرجوكِ. لا تبعثوا بي إلى الملجأ!»

ورحت أتعلّق بها.

- «لا، يا صغيري! لَنْ تَذْهَبَ إلى الملجأ. سأُدبِّرُ الأمر. إنَّ زوجي ليس برَجُل لئيم. ولكنَّهُ الهمّ، والخوفُ من الحاجة، يدفعانه إلى ذلك. إننا سنشتغل، وأنت أيضاً ستشتغل!»

- «نعم. أنا مستعدٌّ لأن أفعل كل ما تريدانه مني. ولكن... لا تبعثا بي إلى الملجأ.»

- «إنك لن تذهب، على شرط واحد. هو أن تنام الآن. يجب ألا يراك مستيقظاً حين يعود.»

وبعد أن عانقَتْني رُحْتُ أُكرِهُ نفسي على النوم.

وإذن، لم تكن الأم بربران، الصالحةُ، اللطيفةُ، الحانيةُ عليَّ، بأمي الحقيقية. ولكنْ، مَنْ هي الأمّ الحقيقية؟ إنها أفضلُ منها، وأعذبُ منها.

إن ذلك الرجلَ القاسي يريدُ أن يُرسلني إلى الملجأ، والأمّ بربران تمانعُ في ذلك. ما هو هذا الملجأ؟

لقد كان في القرية وَلَدان يَدْعونَهما أولاد الملجأ، كانت

لها سلسلة على العنق مرقومة بعلامة. كان لباسها رديئاً، قذِراً. وكان الناس يسخرون منها، بل يضربونها. كان الأولاد، برداءة أخلاقهم، يتبعونها كما يتبعون كلباً ضائعاً، ليتَسَلَّوْا بِهِ؛ لأنَّ ذلك الكلبَ ليس له صاحبٌ يحميه.

لم أرد أن أكون واحداً من هؤلاء الأولاد، لم أرد أن أحمل علامــة عــلى عنقي، لم أرد أن يجروا خلفي صائحين: « إلى الملجأ! إلى الملجأ! »

إن هذه الفكرةَ وَحْدَها كانت تُرْعِش جسدي، وَتَتْرُك أسناني تَصِرُّ صريراً مرعباً.

لم أنم...

ودخل السيد بربران... وغلبني النُّعاس قبله.

٣. « موكب السيد فيتاليس »

وعند الصباح، حين أيقظتْني الأمُّ بربران كان هَمِّي أن أبحث عن حليبي. والتفتَُّ حولي، لأتأكّدَ من أنَّ أحداً لن يحملني إلى الملجأ.

وأثناء ذلك، لم يكلِّمني السيد بربران بشيء، وبدأتُ أفكِّرُ في أن فكرةَ إرسالي إلى الملجأ قد أهمِلَتْ.

لا شكّ أن السيدة بربران قد تكلّمَتْ، وأقْنَعَتْهُ

بوجوب بقائي في البيت.

وعند الظهر، طَلَبَ إليَّ السيد بربران أن أضَعَ قُبَّعَتي على رأسي، وأن أَتْبَعَهُ. إلتفتُّ مَذْعوراً إلى الأمِّ، طالباً مَعُونتها. ولكنَّها، من خَلْفِ أشارتْ إليَّ بأن أطيعَهُ وأنْ لا خوفَ منه.

ورُحْت أمشِي على آثاره...

لقد كانتِ المسافةُ بين بيتنا والقريةِ طويلةً. كنا نمشي، ولم يَخْطُرْ لَهُ ببالٍ أن يكلِّمني. ولكنَّهُ كان يلتفتُ خلفه ليراني، وأنا أتبعُهُ.

- « إلى أين يقودني؟ »

لقد كان هذا السؤالُ يقلقني، بالرُّغم من إشارة الأم بربران المُطَمْئِنة. وكم حَدَّثْتُ نفسي، في الطريق، بالفِرار! ولكنْ، إلى أين المَفَرّ؟

لم يكنْ لي إلاّ أن أتبعَهُ؛ وهذا ما صنعتُهُ!

ثمَّ دخلْنَا القَرْيَةَ؛ فكان الناسُ يَنْظرونَ إلينا ونحن نَسْلُكُ الطريق؛ لأنهم كانوا يَرَوْنَ فيَّ كلباً شِرساً يقوده صاحبُهُ.

حتى إذا بَلَغْنا المقهى، نادى رجلٌ كان يجلسُ على الباب، السّيدَ بربران، ودعاه إلى الدخول.

جَذَبَني بأُذُني، وأدْخَلَني المقهى، وأغلَقَ الباب.

شَعَرْتُ بأنني أسير. ولكنّي لم أَشعُرْ بأنَّ المقهى خَطِرٌ عليَّ. وكان بإمكاني أن أقفزَ خارجَ الباب حين أريد.

المقهى! مقهى القرية، ماذا يمكنُ أن يكون؟

رأيتُ فِتْيَةَ يَخْرُجون من المقهى بوجوه مزوَّقة وسِيقانٍ مترنّحة، وأثناءَ اجتيازي بالبابِ سمِعْتُ أصواتاً وألحاناً تَرْتَجُّ لها ألواحُ الزجاج.

ماذا يَصْنَعُون هنا؟ وماذا وراءَ هذهِ الستائرِ القِرْمِزيّة؟ لا بُدَّ أنْ أعرِفَ ذلك.

وبينما انفردَ بربران بصاحبه، جلستُ بجانب المِدفأة، ورحت أُجِيْلُ طَرْفي في كل زاوية.

رأيتُ، في الزاوية المقابلة رجلاً عجوزاً ذا لحيةٍ بيضاء، يرتدي لباساً غريباً لم يَقَعْ على مثلهِ ناظري، من قبل.

وكان على ذوائبِ شَعرِهِ المُتَهدِّلةِ على كتفيْهِ، قُبَّعَةٌ رَمادِيّةٌ، مُثْقَلَةٌ بريشٍ أخضرَ، وأحمر. وكانَ صدارٌ من جلد الخروف يغطّي جسدَهُ.

كان جالساً على كرسيه: ذقنُهُ تُمسك بها يَدُهُ اليمنى، وكوعُهُ يستريح على ركبته المنحنية. انه يشبه قديساً من القديسين في كنيستنا.

وبالقرب منه كانت ثلاثة كلاب لا تبدي حراكاً؛ وكان أحدُها كلباً طويلَ الوَبَر أبيضَهُ.

كنت مستغرقاً في تأمُّل هذا المشهد، وأذني قد استرَقَتِ السّمعَ إلى أحاديث الرجلين، فأدركتُ أني كنتُ موضوعَ هذه الأحاديث. وفهمت أن بربران قد جاء بي ليسلمني إلى عمدة القرية؛ ليقوم بتسليمي إلى الملجأ.

كان الرجل العجوز مثلي يَسْتَرِق السمعَ إلى الحديث. وفجأةً نهض من مكانه، إلى حيث كان الصاحبان، وطرح السؤال على بربران:

- « أهذا هو الولد الذي يضايقك؟ »
- « هو ذاته. »
- « إني لا أعتقد بأن إدارة الملجأ مستعدَّةٌ للإنفاق عليه. »
- « إنهُ سيمضي إلى الملجأ. وليس هنالكَ قانونٌ يُجبرني على إبقائهِ في بيتي إذا أبَيْت. »

صمت الرجل العجوز قليلاً، ثم قال:

- « هنالك وسيلة للتخلص منه. »
- « إذا عرضت عليّ هذه الوسيلة. فلك مني زجاجة خمر. »

- « اطْلب الزجاجةَ أوّلاً. وما تريدهُ سيكون. »

وترك العجوز مقعده، واقترب من بربران...

وبينما انفتلَ، انحسرَ عَنْهُ صدارُهُ الصوفيّ. فإذا بي أرى شيئاً غريباً.. توهَّمتُهُ كلباً.

ماذا قالَ لَهُ؟ وماذا يَجْري بينهما؟

كنتُ أُحَدِّقُ فيهما، بانتباهٍ دقيق.

قال العجوز:

- « أفهم منكَ أنّكَ عاجزٌ عن كفالةِ هذا الولد. فأعْطني اياه. وأنا أتولى شؤونه. »

- « أعطيك إياه؟ »

- « ألست تريد التخلص منه؟ »

- « أعطيك طفلاً كهذا... طفلاً جميلاً. أنظُرْ إليه! »

- « لقد نظرتُ إليه. »

وناداني بربران، فأقبلتُ عليهما؛ وأخذ العجوز يهدّىء من مخاوفي. فقال بعد أن أمعن النظر إليَّ:

- « إنه غير صالح لشيء. »

- « لا. إنه لائق للعمل. »

- « ولكنّهُ نحيلُ الجسم. »

- « نحيل الجسم. انظر إليه مَلِيّاً! قَوِيٌّ كأيِّ فتى... »

- « إنك تقول شيئاً. والواقع شيءٌ آخر. »

واستعرض العجوزُ ساقيَّ، وذراعيَّ، ليُؤكِّد أنني غيرُ صالحٍ للعمل. وكان آخر جَدَلِهِما:

- « إنني لن أشتريَ الغلام، ولكني أفضل أن أستأجرَهُ بعشرين فرنكاً، في السنة. »

وأخيراً رضي بربران بهذا العَرْض، ولكنه حَذَّرَهُ قائلاً:

- « إن هذا الغلامَ سيَظْهَرُ أهلُهُ في يوم من الأيام. »

- « ليكُنْ! ولَن أتقاضَى منهم شيئاً. »

- « ولكنْ أيَّ عمل سيعمل؟ »

- « إنه عملٌ غيرُ شاقٍّ بالتأكيد، عَمَلُنا الرقصُ، والوثوبُ، والمشي. وبعد هذا كُلِّه. سيأخذُ مكانَهُ في رَكْب إفيتاليس. »

- « وأين هو رَكْبُك؟ »

- « فيتاليس هذا هو أنا. وإذا كُنْتَ في شكٍّ من رَكْبي فانْظُرْ! »

وخلَعَ عَنْهُ صدارَهُ الصُّوفيَّ،وأمسك بيده حيواناً غريباً كان على صدره. لم يكن هذا الحيوانُ الغريبُ كلباً... فأيَّ شيء يكون؟

لم أستطع أن أعرِفه.

لقد كان يكسو بدنَهُ صدارٌ أحمر، مطرَّز، لكنَّ يدَيْهِ وقدمَيْهِ عارية. وهي إلى السواد أميل.

لقد كان ذا رأس ضخم كقبضة يدي المغلقة، وجبهةٍ عريضة، قصيرة. وكانت شفتاه صَفراوَيْن. ولكنَّ أكثَر ما أثارَ حَيْرتي، مَشْهَدُ عينَيْهِ المتقاربتين اللامعتين كمرآة مصقولة.

صاح بربران:

- « يا لَلسَّعدان القبيح! »

أثار الاسم شعوراً مفاجئاً في نفسي. لم أر السَّعدان من قبل، وإن كنت قد سمعتُ به. إنه، إذاً، ليس بطفل أسودَ أمامي. وإنما هو سعدان...

وقال فيتاليس:

- « إليكَ الآن العرضَ الأول، يا صديقي الطيِّب، قم حيِّ الجماعة! »

وإذا بالسعدان « الطيِّب » يحملُ يده المطبَقَةَ على شفتَيْه، ويُرْسلُ قبلة التحية.

ومَدَّ فيتاليس يده نحو الجرو الأبيض:

- « إن السنيور كابي يتشرَّف بأن يقدِّم أصحابه لكم. »

وإذا بهذا الكلب الطويل وبره يشبك يديه على صدره، وينخفض بالتحية لمعلمه، ثم ينفتل نحو رفيقيه، مشيراً إليهما بأن يتقدّما.

وإذا بالكلبين الآخرين، يخطوان ست مرات إلى الأمام. وثلاث مرات إلى الوراء، ويبعثان بالتحية.

ثم أتم فيتاليس كلامه:

- « إن هذا الذي أدعُوه « كابي » هو الرئيس. وهو الذي ينفِّذ أوامري. وهذا رفيقه الآخر المهذَّب يدعى السنيور « زربينو » وأما هذه فهي السنيورة « دولسي » اللطيفة. »

ثم قامَ الكلاب، بعد ذلك، بألعابٍ بهلوانيةٍ حذِقة، وبعد انتهاء العرض قال فيتاليس لجليسه:

- « أرأيت؟ إنَّ كلابي أذكياء. ولكنَّ فضيلة الفطنة لا تظهر إلا بالمقارنة؛ لذلك، أردت أن أصْحَبَ هذا الغلامَ

في ركبي. إنه سيقومُ بدور حيوان.»

صاح بربران:

– «هل تريد أن تجعل منه حيواناً؟»

– «إنه يجب أن يملك عقلاً، وأظن أنه لن ينقصهُ ذلك، بعد أن يتلقى مني بعضَ الدروس... والبرهانُ على ذلك: إذا كان ذكياً فإنه سيُدْرِكُ أنه بصحبتي، وسيكونُ لَهُ الحظُّ في الطّواف في فرنسةَ كلِّها، وبلدانٍ أخرى. إنه سيعيش حياةً حرّةً، بدلاً من أن يعيش وراء الثيران، ويمشي، كلَّ أيامه، في حقل واحد، من الصباح حتى المساء. وإذا لم يكن ذكياً فإنه سيبكي، ويصيح. ولما كان السنيور فيتاليس لا يحب الأولاد اللئام فإنه لن يصحبه معه. وإذ ذاك، ستذهب به إلى الملجأ، حيث يعمل بمشقة، ويأكل قليلاً.»

لقد كنتُ من الذكاء، بحيث فهمتُ مغزى هذه الكلمات.

حقاً، ان تلاميذ فيتاليس يُسَلُّون، كما أنَّ الطّوافَ الدائمَ يُسَلِّي. ولكنّ ثمنَ الذهاب معه هو أن أترك الأم بربران. وإذا أبيتُ الذهابَ معه، فلن يُقَدَّرَ لي البقاءُ بجانبها، وإنما سيحملونني إلى الملجأ.

لبِثْتُ ذاهلاً، مضطرباً، ودموعي تنسكبُ من عينيّ.

واقترب مني فيتاليس، وَمَسَحَ بأطراف أناملِهِ خدي وقال:

– «إن الغُلام قد أدرك كلامي؛ لذلك لم يَصْرُخ. وغداً...»

وهنا صِحْتُ به:

– «دعني لأمي... أرجوك.»

وقبل أن أنهي صيحتي، نبح علي «كابي».

وهنا أتمَّ فيتاليس كلامه:

– «لنعد إلى موضوعنا! سأعطيك ثلاثين فرنكاً.»

– «لا... أربعين فرنكاً.»

وأبدى فيتاليس، بعد جَدَل، إشارَتَهُ إلى القبول. وقال لي بربران:

– «إذهب إلى الساحة، ولا تنطِقْ بشيء، وإلا غَضِبْت.»

لم يكن لي إلا أن أُطيع، وذهبْت. ولكن القلق غلبَ عليَّ، فجلستُ على حجرة، ورحت أفكر.

– «هذا هو حظي الذي كُتِبَ عليَّ في هذه الساعة،

ماذا سيكون؟ البردُ والشقاء أثّرا في جسدي.»

ويبدو أن الحوارَ بين الاثنين قد طالَ أكثرَ من ساعةٍ بعد ذهابي.

وأخيراً، رأيتُهُ يَدْخُلُ الساحة. كان وَحْدَه. هل جاء ليحملَني إلى قبضة فيتاليس؟»

وصاح بي:

- «إلى البيت!»

البيت؟ إذاً لن أترك الأم بربران.

أرَدْتُ أن أسألَهُ، ولكني لم أجرؤ.

وقبل أن نصلَ إلى البيت التفت إليَّ وقال مُمسكاً بأذني:

- «إذا رويت ما سمعتَهُ مني اليومَ فإنكَ ستَدْفَعُ الثمن غالياً... كن حذِراً.»

٤. بيت أمي

وسألتِ الأمُّ بربران حين دخلنا:

- «ماذا قال العمدة؟»

- «لم نَرَه.»

- «وكيفَ ذلك؟»

- «لقد شاهَدْت أصدقائي في المقهى، فتأخَّرْنا عن لقائه، غداً نَعُودُ إليه.»

إن السيد بربران لم يقُصَّ عليها شيئاً من شأن صاحب الكلاب. ولكن، لماذا يجب أن نَعودَ غداً إلى بيت العمده؟ بداً لي أنَّ اتفاقَهُ مع صاحب الكلاب لم يتم.

وعزمت أن أُفاتح الأم بربران بما كان، لمجرَّد أن تسنح لي فرصةُ الاجتماع بها وحدها، ولكني نمتُ دون أن أجد هذه الفرصة. غداً سأُكلّمها.

وفي الغد، حين نهضت، لم أُشاهدِ الأُمَّ بربران.

- «أُمي!»

- «إنها ذهبت إلى القرية، ولن تعودَ إلا بعد الظهر.»

وبدون أن أعلم السببَ، أقلقني غيابُها. إنها لم تذكُرْ أنَّها راحلة إلى القرية، لماذا لم تنتظِرْ حتى ترافقَنا في الطريق؟ هل تراها تعود، ونحن ذاهبان إلى القرية؟

سَيْطَرَ خوفٌ مبهَمٌ على قلبي، دون أن أحسِبَ حساباً للخطر الذي يُحْدِقُ بي. ان هنالك خطراً لا شكَّ فيه.

وخلالَ ذلك، كان ينظرُ إليَّ بربران شَزْراً، ولكي

أتخلّصَ من نظراتِهِ ذَهَبْتُ إلى البستان.

هذا البستانُ الذي لم يكن كبيراً، كان يَهمّنا كثيراً، لأنَّهُ هو الذي يغذينا، وَيَمدّنا بكل ما يجب أن نأكله. لم يكن فيه قطعة مهملة، وقد أعطتني الأم بربران جانباً صغيراً منه، كنت أزرعه بمختلف الأعشاب، أثناء سراحي مع البقرة.

لم يكن شيءٌ يسرُّني فيه أكثرُ من أنه يخصّني. إنه صُنْع يدي، إنه عملي.. لقد نظَّمْتُهُ بِحسبِ ذوقي؛ وكلما ذكرتُه - ولو ذكرتُهُ يومياً عشرين مرة - لم أذكُرْه إلا باسم « بستاني الخاص ».

في زاوية من زوايا بستاني غرسْتُ نوعاً من الخضروات يجهله أهل القرية:

بقلاً وأنواعاً أخرى شئت أن أُقدِّمها هديةً للأم بربران.

لم أذكر لها شيئاً عن هذه الهدية؛ وحين أورقتْ أوهمتُها بأنه ضربٌ من الأزهار. حتى إذا أينَعَتْ، قطفتُها وهي غافلة عني، وطبختُها بنفسي، وقدَّمتُها لها في طبق حساء.

- « ما كان أشدَّ سرورَها بما أكلَتْ! »

إذاً، كنتُ شيئاً نافعاً في البيت... أنا، أنا ريمي!

وكنت راكعاً على قدمي أعمل في البستان حين سمعتُ صوتاً يناديني بإسمي.

كان هو صوت بربران.

- « ماذا يريد مني؟ »

دخلتُ مسرعاً إلى البيت... وإذا بي أُشاهِدُ فيتاليس وكلابه. ان فيتاليس جاء يبحث عني، أثناء غيبةِ الأم بربران التي قَذَف بها إلى القرية، لتكون بعيدةً عني.

وحين شَعَرْتُ باليأسِ من الخلاص، والشفقة ارتَمَيْتُ في حضن فيتاليس وصحت به:

- « أرجوك. لا تحملني من هذا المكان! »

وغَلبَ عليَّ البكاء والنشيج.

والتفت إليَّ فيتاليس يقول:

- « هيّا... إنك لن تكون شقيّاً معي، إنني لا أُهمل الصغار. ستكون مسروراً بصحبة كلابي هؤلاء. على أي شيء تأسف؟ »

وصحت:

- « أمي! أمي! »

وقال بربران:

- « وفي كل حال، لن تبقى هنا. إمَّا فيتاليس وإمَّا الملجأ. »

- « لا! بل الأم بربران. »

وصاح بربران:

- « إنك تَغِيظني بهذا. إذا اقتضى الأمرُ طَرْدَكَ بالعصا فإني فاعل. »

قال فيتاليس:

- « إن هذا الغلامَ يحزَنُ على أُمه. لا يجب أن تضرِبَهُ من أجل هذا. ان له قلباً وهذه علامة خير. »

- « ولكنك إذا أشفقتَ عليه زاد في صياحه. »

- « والآن، لنَعْمل! »

وهنا وضع فيتاليس بضعَ قطَعٍ من الفرنكات على الطاولة، دسَّها بربران سريعاً في جيبه.

وسأله فيتاليس:

- « أين صرَّة ثيابه؟ »

لم يكن هنالك شيء!

ولكن فيتاليس اضطُرَّ إلى السكوت، لأن الجَدَلَ لا يجدي شيئاً.

- « إنَّ الوقتَ ضيِّق. وأنا على أُهبة السفر. هيًا، يا صغيري! ما هو اسمه؟ »

- « ريمي. »

- « هيا، يا ريمي! احمِلْ صُرَّتَكَ وَٱمشِ أمامَ « كابي » إلى الأمام! »

وَمَدَدْتُ يدي نحوه، ونحو بربران. وكلاهما أمالَ رأسه عني وشعرتُ بقبضة فيتاليس تَشُدُّ على يدي.

يجب السير!

- « آه! يا لَلْبيت الصغير! »

وحين جُزْتُ عَتَبَة البابِ أَحسَسْتُ بأني تركتُ فيه قطعةً من جلدي.

صرتُ أنظر إلى ما حولي، وعيناي المظلمتانِ بالدموعِ لا تَريانِ شخصاً أستنجدُ به. لا أحدَ على الطريق. ولا في الحقول.

هَتَفْت:

- « أمي! أين أنتِ؟ »

ولكنْ لم يُجِبْ على ندائي أحد، وضاعَ صوتي في البكاء.

يجبُ اللّحاقُ بفيتاليس الذي لم يترُكْ قبضتَهُ.

وصاح بربران:

- « سفرٌ موفق! »

ودخل إلى البيت.

واأسفاه! كلٌّ شيء قد انتهى:

وقال فيتاليس:

- « هيا، يا ريمي! هيا، يا ولدي! »

وشدَّني من ذراعي.

ومشيتُ خَلْفَه، وكان - لحسن الحظ - لا يُوْسِعُ خطواته، بل كان يجعلها ملائمة لخطواتي.

الطريقُ الذي سلكناه يحاذي الجبل. وفي كل ثَنِيَّة، كان بيتُ الأم بربران يتضاءل في نظري شيئاً فشيئاً.

ولكنْ، حين نجوزُ هذا المرتقى، سينتهي كل شيء، ولا شيء. أمامي المجهول، وورائي البيتُ الذي عشتُ فيه حتى هذا اليوم سعيداً.

ولحُسْن الحظ كان المُرْتَقى طويلاً... وبلَغْنا القمةَ

العالية. ولا تزال قبضةَ فيتاليس تشدُّ عليَّ.

قلت له:

- « هل أستطيع أن أستريحَ قليلاً؟ »

- « كما تريد يا ولدي. »

ولأوَّل مرة أطلَقَ يدَهُ عني.

ولكنه، في الوقتِ نفسِهِ، التفَتَ إلى « كابي » وأشار إليه إشارةً فَهِمَهَا. وفي الحال، أقبل نحوي، وربَضَ خلفي وكأنه يحرسني.

وَقَعَدْتُ على طَرَفِ مُعْشِبٍ، وكابي يلازمني... ورحتُ، من خلال دموعي المنهمرة، أبحثُ عن بيتِ الأمّ بربران.

كان تحتنا الوادي الذي اجتزْناه، تُغَطِّيه الأعشابُ والأشجار، وفي الأسفل كان بيت أمي وقد بَرَزَ وحيداً.

لقد كان يسيراً عليَّ أن أتبيَّنَهُ في هذه اللحظة التي يَصْعَدُ فيها دخانٌ أصفر من مِدفأته، ولا يزال يتعالَى في الهواء الراكدِ حتى يصلَ إلينا.

ليكنْ ذلك حقيقةً، أو وهماً! إنَّ هذا الدّخان يحملُ إليَّ رائحة أوراق السنديان التي يبِسَتْ على الفروع المقطوعة.

وخُيِّلَ إليَّ أنني لا أزال هناك حولَ المَوْقد، على

مَقْعَدي، وقدماي في الرّماد.

وبالرَّغم من بُعد المسافة، كان كلُّ شيءٍ، مما أراه تحتي، واضحاً بأشكالِهِ.

على تلك الصُّفَّة دجاجتُنا الأخيرة التي بقيت. كانت تغدو هنا وهنا، ولكن لم يَكُنْ لها ضخامتُها المألوفة. ولو لم أكن أعرفُها لما حسِبْتُها إلا حمامةً صغيرة.

وفي طرفِ البيتِ كنتُ أرى شجرة الإجاص ذاتَ الجذعِ المعقوفِ الذي طالما امتطيتُهُ حصاناً.

كلُّ شيء كان هنالك في موضِعِه، نقالتي، ومحراثي، والوكر الذي رَبَّيْتُ فيه الأرانب، يومَ كان لنا أرانب، وبستاني... بستاني العزيز.

من الذي سيُعْنَى بأزهاري، أزهاري البائسة؟ ومن الذي سيُرَتب غراس البقل؟ إنه بربران. بربران اللئيم.

وخطوة أخرى على الطريق؛ كل ما أراه يتلاشى.

وفجأةً، على الطريق الذي يمتد من القرية إلى البيت، شاهدتُ، عن بُعدٍ، رداء أبيض. كان يختفي أحياناً وراء الشجر، ثم يظهر.

كانتِ المسافةُ بحيثُ لم استطعْ إلاّ تمييزَ بياضٍ هذا الرداء الذي كان كفراشةٍ تطيرُ بين الأغصان. ولكنْ،

هنالك، في بعض الأحيان يرى القلبُ أفضلَ مما تراه العينُ الثاقبة: لقد عرفتُ صاحبةَ البياض؛ إنها الأم بربران، ولا بد أن تكونَ هي.

صاح فيتاليس:

- « والآن، لنستعدّ! »

- « لا، أرجوك. »

- « حقاً، كما نعتوك، ليس لكَ رِجْلان تَسْعَى بهما، قليلٌ من المَشْيِ أتعبَكَ.. إذا كان هذا ما سيكونُ فإن أيامَنا ستسوء. »

لم أجب، ولبثت أنظر.

إنها الأم بربران. هذا هو رداؤها. وهذا صدارها الأزرق. إنها هي كانت تمشي مسرعةً بخطىً واسعة، لكي تبلغ البيت.

ها هي تعبر ساحة الدار...

وفجأةً وقفتُ، دون أن أفكرَ في « كابي » الذي أخذ يقفز حولي.

لم تبق الأمّ بربران كثيراً داخلَ البيت؛ فخرجتْ، وهي تركض هنا وهناك، ويداها مفتوحتان.

إنها تبحثُ عني!

وصِحْتُ ملء فمي، وبكل ما أُوتيتُ من قوّة:

- « أمّاه! أمّاه! »

وسألني فيتاليس:

- « ما بك؟ هل أنت مجنون؟ »

لم أجب وظلّت عيناي معلّقتَيْن بالأمّ بربران، لكنها لم تكن تدري أني قريب منها، ولم يخطر لها أن ترفع رأسها إلى الأعلى.

لقد تركَتِ الساحة، وعادتْ إلى الطريق ترقُبُ كلّ جهة. وكنتُ وأنا أصرخ، ولكنْ بدون فائدة.

وعندئذٍ أدركَ فيتالبس الحقيقة.

- « أيها البائس الصغير! »

- « أرجوك! دعني أرجع إلى البيت! »

- « أما، وقد استرحت، فَلْنَمشِ الآن! »

وهنا صاح بالكلاب:

- « كابي! زوربينو! »

فأحاط بي الكلبان؛ من أمامي ومن خلفي.

يجب أن أتبع فيتاليس.

وخلال لحظات، فتلتُ رأسي... وانطلقنا في طريق جبليّ وَعْر، وغابت عن عينيَّ الوادي، والبيتُ الحبيب.

ليس أمامي الآن إلا تلالٌ زرقاء، تذهبُ في العُلُوّ كأنها تريد أن تصعد إلى السماء. وضاعت عيناي في آفاقٍ بعيدة، ليس لها حدود.

٥. الطريق

قد يشتري إنسان ولداً بأربعين فرنكاً. ولكن هذا لا يعني بالضرورة، أن ذلكَ الإنسان هو غولٌ يستطيب أن يخزن اللحم الغَضّ طلباً للأكل.

ان فيتاليس لا يريد أن يأكلني. بل هو على نقيض أولئك الذين يشترون الأطفال، إنه ليس بإنسان لئيم.

بعد مسيرةِ رُبع ساعة، رأيته يتركُ يدي، ويقول لي:

- « والآن، اتبعْ آثاري. ولكن لا تنسَ أنك إذا أرَدْتَ الهربَ فإن كلابي تَنْهَشُك بأنيابها. »

أيُّ هربٍ من هذا المكان؟ إنه صار مستحيلاً.

ثم أكمل فيتاليس:

- « إنَّ لكَ قلباً كبيراً. تستطيع أن تبكي حين تريد. ولكنْ يجبُ أن تعلمَ أن ما صَنَعْتُهُ هو لخيرِكَ ومنفعتِكَ.

ماذا كان سيحلُّ بك؟ لن يكونَ لكَ سوى الملجأ! إنَّ الذين تعهَّدوا تَرْبِيَتَكَ ليسُوا بأمِّك ولا أبيك...

إن أمَّكَ، كما قلتَ، كانت تحسِن معاملتك؛ وأنت على حق في حزنك على فراقها. ولكنْ فَكِّرْ في أنها لا تستطيع أن تَسْتَبْقِيكَ بدون إرادةِ زوجها... وهذا الزوج، ليس هُوَ من القَسْوة كما تتصوَّر. إنه لا يملكُ قوت يومه. إنه مصابٌ بعاهة، فلا يقدرُ أن يعمل. وهو ليس بمُضْطَرٍّ إلى أن يموت جوعاً من أجل إطعامك.

تعلَّمِ الآن، يا وَلَدي. أنَّ الحياةَ معركة، لا يستطيعُ الإنسانُ أن يصنع فيها ما يريد.»

تلك هي كلماتٌ حكيمة أملَتْها عليه التجربة. ولكنْ، هنالك، في هذه اللحظة، ما هو أقوى من هذه الكلمات: الفراق.

إنني لن أرى تلك التي رَبَّتْنِي، وهَدْهَدَتني... تلك التي أحببتها - أُمي

كنتُ فريسةَ هذه الأفكار وأنا أوالي السير بالقرب من فيتاليس، منتظراً أن يعيد عليَّ ما سمعتُهُ منه.

وبدون شك، كان كل ما قاله حقاً. ان بربران لم يكن أبي. وليس هناك منطق يُجبره على أن يكابد البؤس

والحرمانَ من أجلي. إنه إذا قذفَ بي فلأنه لا يستطيع أن يحتفظ بي.

وفي الوقت نفسه، كرر فيتاليس قوله:

- « فكِّرْ فيما قلتُ لك! لن تكون شقيّاً معي!»

ودخلنا بعد هذا المنحدر، سَهْلاً مترامياً، خالياً من البيوت، والأشجار... ليس فيه إلا أعشابٌ دكناء كانت تتلوّى تحت هبَّات الريح.

إلى أين نذهب؟ وعند مَنْ؟

بعد هذا كلِّه، لم يكن هذا العجوزُ الكبير، الطيِّب، مُرْعباً كما تصوَّرْتُهُ، وإذا أصبح اليوم سيِّدي فإنه ليس بسيِّدٍ قاسي القلب.

ومَشَيْنا طويلاً... إلى أبعدَ مما يمتدّ النظر. بين تلال مجدبة.

كوَّنْتُ لنفسي فكرةً عن الأسفار، فأنا حين غادرت قريتي، في أحلامِ طفولتي، غادرتُها إلى أقطارٍ جميلة، لا تُشْبِهُ هذا الواقعَ الذي أنا فيه.

ولأوَّل مرة، سِرْتُ هذا السَّيرَ الطويلَ دون أن أستريح. وسيدي العجوز كان يتقدَّمُ بخطواتٍ ثابتة، حاملاً

«السّعدان» على كتفه، أو على حقيبته. وحوله تعدو كلابُهُ، دون أن تفارقَهُ.

لا هُوَ ولا أنا فكّر في التعب. ولكنَّ الأمر يختلفُ عندي. لقد فَقَدْتُ قوايَ... ورُحْتُ أحملُ قدميَّ بتثاقُل، دون أن أجرُؤَ على طَلَب الراحة.

قال فيتاليس:

– «يبدو أن حذاءك قد أرْهَقَك... في مدينة «أوسل» سأشتري لك حذاء آخر.»

تلك كلمةٌ نفخَتْ فيَّ الشجاعة.

– «ومدينة أوسل ألا تزال بعيدة؟»

قال فيتاليس؛ وهو يضحك:

– «هذه صيحة القلب. إنكَ تريد حذاءً، يا ولدي. سيكون لك هذا الحذاء، وبنطال مخملي، وصدرية، وقبّعة. هذا يساعد على تنشيف دموعك. ويعطيك ساقَيْنِ قويّتين لمتابعة المشي.

نسيتُ تعبي، وأيْقَنْتُ أنَّ هذا العجوز ليس برجل رديء.

آه لو تراني الأم بربران الآن! كم يكون سرورها بي، وكم يكون إعجابها!

ولكنْ، كم يُؤلمني أن «أوسل» لا تزالُ بعيدة!

يُخَيَّلُ إليَّ أنني لا أستطيعُ مواصلةَ المشي.

هذه السماء التي كانت زرقاء، حين انطلقنا، بدأت قطَعٌ من السحب تغطي وجهها. وتلا ذلك مطرٌ خفيف متواصل.

أما فيتاليس، فإنه بجلد الخروف، يستطيع أن يحمي جسده، في حين أن سعدانه راح يتوارى في طيات ثيابه، منذ القَطْرة الاولى.

أما أنا والكلاب فليس لنا أيُّ مخبأ نلجأ إليه... ولذلك، بَلَّلَنا المطر، حتى نَفَذَ إلى جلودنا.

كان لا بُدَّ من السير، تحت ثياب مُبْتَلَّةٍ ثقيلة، تُرْعش جسدي بالبرد.

قال فيتاليس:

– «هل أصابك البرد؟ إننا لن نذهبَ بعيداً. هناك قريةٌ سنأوي إليها.»

ولكنْ ليس في القرية ظلٌّ يحمينا، ولا شخصٌ يَرْضَى بأن يؤوي هذا السائلَ الذي يجرُّ وراءه ولداً وثلاثة كلاب.

لقد أغلقوا الأبواب في وجوهنا... هل يجبُ علينا أن

نواصلَ السيرَ، حتى «أوسل»؟

أرْخى اللَّيْل أستارَهُ، والمطرُ جمَّدَ أطرافَنا. وأنا شَعَرْتُ بأنَّ ساقيَّ استحالتا قطعتَيْن من خشب.

- «أين بيت الأم بربران؟؟»

وأخيراً تصدَّى لنا قَرَوِيٌّ كان أكثرَ حناناً من رفاقِهِ. وفتح لنا بابَ بيتِهِ. ولكنه اشترطَ علينا ألا نضيء النور.

رَضِينا بشرطِهِ، ويكفينا هذا السقفُ الذي يردُّ عنّا المطر.

كان فيتاليس رجلاً حذِراً، فقد أودَعَ حقيبتَهُ قطعةً ضخمةً من الخبز، قَسَّمَها أربعةَ أجزاء.

لقد رأيتُ، لأوَّل مرةٍ، فَضْلَ الترتيب في الرِّحلة.

وبينما كنا تائهين من باب إلى باب، نبحث عن ملجأ، دخل الكلب «زوربينو» وعاد منه يحمل شريحة لحم بفمِهِ.

ولم يزد فيتاليس على أن قال:

- «إلى هذا المساء، يا زوربينو!»

وجلسنا جميعاً في حَلْقةٍ واحدة. وقال فيتاليس:

- «ليخرج السارق من الحلقة!»

وسريعاً، غادَرَ زوربينو مكانه، ومشى كسير القلب،

واختبأ في المكان الذي أشار إليه فيتاليس.

إننا لم نَعُدْ نراه. ولكنّا كنا نسمعُهُ يئنُّ بصوت مخنوق.

وبعد هذا، قدَّم فيتاليس إلى كل واحد منا نصيبَهُ من الخبز.

أين الحساء الساخن الذي كانت تقدِّمُهُ لي الأم بربران؟ أين النارُ الجميلةُ التي كانت تدفئني؟ أين الأغطية التي كانت تَلُفُّ بها جسدي؟ إنني الآن فريسةُ التعب، أرتعشُ من البرد بثيابي المبلولة.

وصار الليل عميقاً. ولكني لم أفكِّر في النوم.

قال لي فيتاليس:

- «إن اسنانك تَصِرّ. هل أنت بردان؟»

- «قليلاً.»

ورأيتُهُ يفتَحُ حقيبتَهُ... فإذا به يُخْرِجُ ثياباً، وطلب إليَّ أن أَرْتَديهَا.

- «سوف تشعر بالدفء بعد قليل، ومن ثم تنام.»

ولكنْ.. هل تكونُ أيامنا الآتية على هذه الحالة؟ سيرٌ دائم بدون انقطاع تحت المطر؟ نوم في كوخٍ بالٍ مصحوبٌ برعشات البرد؟ لا طعامَ إلا هذا الخبز اليابس. أنا لا أرى

أحداً يرثي لي، ولا يحبّني!

وبينما كنتُ غارقاً في تأمّلاتي الحزينة، أحسستُ أنفاساً دافئة تمرُّ على وجهي. مَدَدْتُ يدي إلى الأمام؛ فلمَسْتُ يَدَ «كابي» الليِّنة.

لقد اقترب مني بهدوء، ولَمَسَني، وكانت أنفاسُهُ تمشي على وجهي، وتتغلغَلُ في شَعري.

ماذا يريد كابي مني؟

لقد ربض بجانبي، وراح يَلْحَسُ يَدي بحنان.

لقد تأثرتُ بما فعل. واستَوَيْتُ جالساً، وقبَّلْتُ أنفَهُ البارد.

أرسَلَ صيحةً خفيفةً مخنوقةً، ثم وضع يَدَهُ على يدي، ولم يتكلَّم.

وإذْ ذاكَ نسِيتُ تعبي وهمومي... وبدأتُ أتنفَّس براحة.

لم أكُنْ هنا وحدي...

لقد صار عندي صديق!

٦ . فصول في البداية

وفي الصباح انطلَقْنا في البكور!

فلا مطر؛ بل سماءٌ زرقاء، حمداً للريح التي جففَتِ الوحولَ خلال الليل.

والعصافير كانت تَشْدو بين أعشاب الطريق. والكلابُ كانت تثِبُ حَوْلَنا.

وبين الحين والحينِ كان «كابي» يتخلف ليُرْسل نبحةً أو نَبْحَتَيْنِ في وجهي؛ كنتُ أفهم معنى ذلك.

«الشجاعة! الشجاعة!»

لأنَّ «كابي» كان كلباً شديدَ الفِطْنَة، يفهمُ كلَّ شيء. وكأنه لا ينقصُهُ إلاَّ الكلام.

ولكنْ، أليس في ذيلِهِ وَحْدَهُ من الفهم والفطنة ما نراه في ألسنة الكثير من الناس وعيونهم؟

وفي كلِّ حال، لم يكنِ الكلامُ لينْفَعَهُ أو يَنْفَعَني! لأننا، منذ اليوم الأول قد تفاهَمْنا.

ما كنتُ، وأنا ابنُ القرية، أعرِفُ ما المدينة؟

ولكنّني قدَّرْتُ أنَّ مدينة «أوسل» لن تَرُوقَني...

من الحقِّ القولُ أن ما أريدُهُ سأراه في بيوتِ هذه المدينة، ولكنَّ هذا كله لا يَجْذِبُني.

فكرةٌ وحيدةٌ كانت تَشْغَلني وحاجةٌ واحدةٌ كنت

أتمَّاها: دُكّانُ حذائي!

الحذاء الذي وعدني به فيتاليس قد حانت ساعته.

وهكذا فإنَّ الذكرى الوحيدةَ التي وعيتُها من هذه المدينة، هي ذكرى حانوتٍ مظلم، سوَّدَهُ الدخان... ينزل إليه القاصد ثلاثَ درَجاتٍ ليَدْخُل فيه. وهناك يَجدُ نفسَهُ في مكان رحيب، حَيْثُ لم يَنْفَذْ إليه شُعاعُ الشمس، منذ ٱرتَفَعَ سَقْفُهُ.

كيف يباعُ الحذاءُ الجميلُ في مثلِ هذا المكان المُرْعب؟

اشتَرَى فيتاليس الحذاءَ؛ ثم عرّج على السوق فاشترى لي صداراً مُخْمليّاً أزرق، وبِنْطالاً من صوف، وقبَّعة جوخ، وأخيراً كلَّ ما وعدني به. إنه حقاً من أكرم الرجال وأنبلهم قلباً.

لبِسْتُ هذه الأشياءَ الجميلة، ولكنّه قَبْلَ أن وَضَعَها بين يَدَيّ، أجرى تعديلاً في هذِهِ الأشياء، مما أحزنني.

لقد أخذ المِقصَّ، وقصَّرَ البِنْطالَ حتى الرُكبَتَيْن.

وحين نظرْتُ إليه مستغرباً، قال:

– «إنَّ هذا يجعلُك لا تُشبِه أيَّ إنسان... مَنْ نحن؟ فنَّانون، ممثلون نجتذب أنظارَ المتفرّجين بأزيائنا الغريبة؛ ونحملُهُمْ على الوقوف والنظر إلينا.»



إن هذا يجعلك لا تشبه أي إنسان..

وحَوْلَ قُبَّعتي وضعَ أشرطةً، وزيَّنَها بباقةٍ من أزهار صوفيَّة.

لا أعرفُ ماذا يفكِّرُ الناس بي، بهذا المرأى. ولكني رأيتُ نفسي عَظيماً.

لقد سَرَّ هذا المشهد « كابي ». و « السعدان » أخذ يَزْحَفُ نحوي ويُقلِّدُ حركاتي بعد أن يُبالغَ فيها، ثم يسترسلُ في الضحك ساخراً.

لقد سمعتُ أنها مسألةٌ علمية؛ هل تضحك السعادين؟ ولكني فكَّرْتُ أن الذين وضعوا هذا السؤال هم علماء نظريون، لم يُجرِّبوا أن يدرسوا السعادين.

وأنا الذي عشْتُ طويلاً مع « سعداننا » أؤكِّدُ بأن السَّعدانَ يضحك، وبدون شك، لا تُشْبِهُ ضحكتُهُ ضحكةَ الإنسان. ولكنَّهُ، حين تثيرُ أيَّةُ عاطفة طَرَبَهُ، تجد زوايا فمِهِ تنْقبض إلى الوراء، وحاجبَيْه يتقوّسان وحَنَكَهُ يهتزّ بسرعة، وعيْنَيْه السوداوين تُطْلقانِ الشرر.

وبعد الانتهاء من هذه الزينة، قال لي فيتاليس:

– « سنبدأ الآنَ العمل، لكي يتهيَّأَ لنا أن نقدِّم عَرْضَنا التمثيليَّ غداً في السوق. »

– « وما هو هذا العمل؟ »

– « إنني إذا اصْطَحَبْتُكَ معي فليس ذلك لمجرَّدِ النُّزْهة لأنني لست غنيّاً بما فيه الكفاية. ولكنْ، لتعملَ معي... وَدَوْرُكَ أن تلعَبَ مع كلابي وسعداني. »

– « ولكنِّي لا أُحسن اللَّعِب. »

– « ولهذا سأُعلِّمكَ... إنّك تفكِّرُ أنَّ « كابي » ليس من طبيعتِهِ أن يمشي بلُطْف، على قدمَيْهِ الأخيرتَيْن. وليس من طبيعة « دولسي » أن تَرْقُصَ على الحبل... إن الإثنين تعلّما ذلك. وكان عليهما أن يتمرَّنا كثيراً ليجيدا عَمَلَهُما. وأنت، أيضاً، عليك أن تَعْمل كثيراً لتتعلَّمَ الأدوارَ التي ستقوم بها... والآن هيّا إلى العمل! »

كنتُ حتى تلك اللحظة، أفكِّر أن عملي هو حَفْرُ الأرض، أو زَرْعُ شجرةٍ، أو نَحْتُ حَجَر.

وأتمَّ فيتاليس كلامَه:

– « القطعةُ التي سنقدِّمُها هي « خادم السعدان »، والموضوعُ هو أنَّ السَّعدان يملك خادماً كان سعيداً به. وهذا الخادمُ هو كابي. لكن كابي أمسى عجوزاً. فالسعدانُ يريدُ خادماً جديداً، أنيساً. فاقترحَ له كابي هذا الخادم ولكنَّه، هذه المرةَ، لم يكن كلباً، وإنما هو غلام صغير، قروي اسمه « ريمي »..

- « أيكون مثلي؟»

- « بل هو أنت.»

- « ولكن السّعادينَ ليس لهم خدم.»

- « في الكوميديا يمكنُ أن يكونَ ذلك، وعندما يتحنك السّعدانُ لا يجدُكَ إلا خادماً أبله... ويبدأ الضحكُ حين يراكَ الناسُ أبله. ستمارسُ هذا الدورَ أكثرَ من عشرين مرةً، حتى تُتْقِنَهُ. هل هذا يُضْجِرُكَ؟»

- « لا، إنَّهُ يُسَلِّيني.»

- « إذاً كلُّ شيءٍ سيكونُ حسناً. إنَّكَ لم تَعِشْ حتى هذا اليومِ إلاّ مع حيوانات القرية، التي تُساق بالعصا.»

- « ولكنَّ الأم بربران كانت لطيفة مع بقرتها.»

- « إنها كانت على حق، ذلك لأنها تعلم أنَّ ما يُنالُ بالعُنْف هو أقلُّ بكثيرٍ مما يُنالُ باللين. إنني بطريقتي هذه البعيدة عن القسوة جَعَلْتُ من كلابي كائناتٍ لطيفةً. ولو أنني كنت أقْرَعُها بالعصا لأصابَها الخوف، والخوفُ يَقتلُ الفِطْنَة. إن الذي يعلّم غيرَهُ يجب أن يعلّمَ نفسَهُ. إن كلابي أعطتني الكثيرَ من الدروس التي أعطيتُها إياها....»

وقد أدهَشَني هذا الكلامُ، وأضحكَني كثيراً.

- « لعلَّكَ تَجِدُ، يا بُنَيّ، هذا غريباً. كيف يُعَلِّمُ الكلبُ الانسان؟ إنَّ الكلبَ هو مرآةُ صاحبه. أرني كَلْبَكَ أقلْ لكَ من أنت؟ السارقُ يكونُ كلبُهُ سارقاً. والقَرَوِيّ يكون كلبُهُ ضَخْماً بدون ذكاء. والرَّجُلُ المهذَّبُ يكونُ كَلْبُهُ أَنيساً.»

وعند الصباح، تركْنا الكوخَ إلى ساحةِ المدينة لنقدِّمَ عَرْضَنا الأول...

وبدأ فيتاليس العَرْض، رافعَ الرأس، بارزَ الصَّدر، يُرسِلُ لحناً من ألحان الفالس. ووراءَهُ كلابُهُ، وسعدانُهُ وأنا.

تراكضَ الناسُ من بيوتهم إلينا، وعدا خَلْفَنا كثيرٌ من الأولاد، ولم نبلُغِ الساحةَ حتى كان موكبٌ عظيمٌ يحيط بنا.

وبدأنا مسرحيَّتَنا... وقام كلٌّ بدوره!

وأخذَ التصفيقُ يُدَوّي في كل مكان، وانتهى التمثيلُ بنصرٍ كبير.

وحين عودَتِنا هنّأني فيتاليس!

٧. كيف تعلمت أن أقرأ

وبعد ثلاثةِ أيامٍ قضَيْناها في مدينة « أوسل » تهيَّأنا للرحيل.

سألتُ فيتاليس:

- « إلى أين تَرحل؟ »
- « ولماذا تسألني؟ »
- « لأعرف. »
- « ماذا تريد أن تعرف؟ »

ولبثْتُ ساكناً. ثم قال:

- « لو عرفتَ أننا سنقصِدُ مدينةَ « بوردو » وجبال البيرينيه بعدها، ماذا يفيدكَ هذا؟ »
- « ولكنْ، هل تعرفُ البلد؟ »
- « لا. »
- « ولكنَّكَ تعلَمُ حيث نذهب! »

وحدَّق إليَّ طويلاً، كأنَّهُ يَبْحَثُ عن شيء، وسألني:

- « إنَّكَ تجهلُ القراءة. »
- « أجْهَلُها تماماً. »

- « هل تعرِفُ ما هو الكتاب؟ »
- « أعرِفه... إنهم يحملونَ الكُتُبَ إلى الكنيسة ليَتْلوا الصلوات... »
- « إذاً، تعرفُ أن بالإمكانِ كتابَة الصلواتِ في الكتب؟ »
- « أجل... أعرف. »
- « كذلك، يمكن أن يَضَعوا أشياء أخرى غيرَ الصَّلَواتِ في الكتاب، إنك حين تُصَلّي تردِّدُ كلماتٍ حَفِظْتَها بأذنَيْك من أمك. أما الذين يقرأون الكتاب فليس لهم حاجةٌ إلى ذلك، لأنهم يعرِفونها بعيونهم... لأنهم يقرأون. »

وعند ذلك، قلت له بلهجة شديدة:

- « إنني أريدُ أن أقرأ مثلَهُمْ. »

التفت إليَّ فيتاليس قائلاً:

- « ما يُمكنُ عمله في الصَّلواتِ، يمكن عملُهُ في كل شيء. في الكتاب الذي سأُطْلِعُكَ عليه سنجد الأسماء، وتاريخ البلدان التي سنزورها. إنَّ الرجالَ الذين سَكَنُوا هذه البلاد، أو مَرُّوا بها، وَضَعُوا في كتابي كلَّ ما رأوْه، أو تعلّموه. ولا أحتاجُ إلى فتح هذا الكتاب حتى أعرف

البلدان، وأراها، كأنني أشاهدُها بأمِّ عيني. إنني أعرِفُ تاريخها كأنهم قصُّوا عليَّ ذلك.»

حقاً لقد نشأتُ ولداً وحشياً لا عِلْمَ له بالحياة المدنية... لا أُنكر أنهم أرسلوني إلى المدرسة؛ وكان ذلك لشهر واحد. فما تعلمتُ القراءة ولا الكتابة، ولا وضعوا كتاباً بين يديَّ.

وبعد أن مشينا طويلاً سألتُ فيتاليس:

- «أليستِ القراءةُ صعبة؟»

- «إنها صعبةٌ على من كانت رؤوسُهم قاسية، وهي أصعبُ على أصحاب الإرادة السيِّئة. هل رأسُكَ قاسٍ؟»

- «لا أدري ذلك. ولكنْ يخيَّلُ إليَّ أنك إذا علَّمْتَني القراءة، فستجدُ إرادتي نشيطة.»

- «ما دام الأمرُ كذلك، فلماذا لا نبدأ؟»

وفي الصباح مشينا... وفي الطريق رأيتُ مُعلِّمي ينحني على الطريق ويتناول لوحةً مغشَّاة بالغبار. وقال لي:

- «هذا هو الكتابُ الذي سيعلِّمك القراءة...»

نظرتُ إليه مَشْدوهاً... هل هو يَسْخر مني؟ ولكنَّه جادٌّ فيما يقول.

إنها لوحة خشبٍ مصقولة؛ ليس عليها أيُّ رسم.

ماذا أقرأ على هذه اللوحة؟

- «هل أنت تَسْخَرُ مني؟»

- «معاذَ الله! إنَّ السُّخرية نوعٌ من الحماقة... انتظِرْ قليلاً!»

وحين جلَسْنا برى قطعةَ خشب، وَجَعلها حادة، مُرْهَفَةً. ثم قال:

- «على هذهِ اللَّوحة الخشبية سأرسمُ لكَ بسِكِّيني حُروفَ الأبجدية. وبهذه ستتعلَّمُ أن تقرأ.»

وحين كنتُ أخطىء كان يقولُ لي:

- «إن كابي سيتعلَّم القراءة قبل ريمي! أن يكون الإنسانُ أدنى من الحيوان، شيءٌ رائعٌ في التمثيل... أما في الواقع فذلك أمرٌ مخجل.»

وأخيراً صرتُ أقرأ...

- «والآن، تعلَّمْتَ القراءة... يجب أن تتعلَّمَ الموسيقى!»

- «ولكنْ، إذا تعلَّمتُ الموسيقى، فهل يُمكنني أن أُغنِّي مثلَكَ؟»

كان فيتاليس يُغَنّي أحياناً، وكم كان يَسُرّني أن أستمع إلى غنائه!

- « وهل تريد أن تغني مثلي؟ »

- « ليس مثلك. أنا أعرفُ أن ذلك مستحيل. ولكني أُغني! »

- « وهل تطربُ لسمَاع غنائي؟ »

- « إنَّ البُلْبُلَ يُحْسِنُ الغناء، ولكنك أنت تُغَنّي خيراً منه. حين تغني تجعل مني كما تريد. أميلُ حيناً إلى الضحك، وحيناً إلى البكاء... وفي كل ما تغنّيه تحملُني إلى الأم بربران. بها أفكّر، ولا أرى سواها في بيتنا... »

كانت عيناه مُخْضَلَّتَيْن بالدَّمع، واعتذرتُ له عن كلامي.

- « لا، يا ولدي، لا حاجةَ إلى الاعتذار. إنك تذكّرني بحداثتي وأيامِها الجميلة. كُنْ هادئاً! سأُعلِّمُك الغناء. وبما أنك تملكُ قلباً حسّاساً، فإنك سَتَسْتَطِيعُ أن تُضحِكَ الناسَ وتُبْكِيَهُمْ... »

وفي صباح اليوم التالي، بدأ بتعليمي الموسيقى كما علّمني القراءة. ولكنَّ ذلك لن يكونَ في يوم واحد... ومن حُسْنِ حظّي أنني كنت أهلاً لذلك.

لقد كنتُ من قبلُ ولداً حقيراً لا أملكُ إلا ساقَيْن دقيقَتَيْن وذراعَيْنِ نحيفتَيْن. أما اليوم، بفضل هذه الحياةِ الطَّلْقةِ القاسية، فقد اشتدَّ بدني وأصبحتُ قادراً على احتمالِ البَرْدِ والحرّ، والشمسِ والمطرِ، والتعبِ والشقاءِ، بدون ألم.

٨. بين الجبال والأودية

لقد اجتَزْنا جزءاً كبيراً من فرنسة بهذه الطريقة:

كنا نمشي بدون هدف. فإذا شاهَدْنا قريةً من بعيد، عليها مَسْحةُ النعيم دخلْناها دخولَ الظافرين.

وكنتُ أقومُ برعاية الكلاب: أمشّطُ « دولسي » وأكسو « زوربينو » وأضع لزقة على عين « كابي » لكي يتمكّنَ من القيام بدور الثرثار العجوز، ثم أُجبر السَّعدانَ على أن يرتديَ ثوبَ الجنرال..

بعد ذلك، كان فيتاليس يتناول نايَهُ، ويَضَعُنا في صفٍّ منتظم، ثم ندخل القرية.

وقال لي فيتاليس مرّةً:

- « بما أن القدر حكم عليك أن تطوف البلاد، في مثل عُمرك، حين يكونُ الصغارُ في المدارس، افتح عينيْك، وانظرْ، وتعلّمْ! وعندما ترى شيئاً لم تفهمْهُ وإذا

كان لكَ من أسئلة، فاسألني بدون خوف. إنني أكبر منك سِنّاً، وأستطيع أن أفيدك، وأنا لم أكن دائماً مُديرَ هذه المخلوقات العالمة... لقد تعلَّمتُ من قبلُ، أشياء أُخرى، نفعَتْني في تأليف هذا الموكب.»

– « ماذا تعني؟ »

– « سنتحدَّثُ عن هذا كثيراً. ولكنْ اعرفِ الآنَ أن هذا الذي يقودُ الكلابَ في هذه اللحظة، قد شَغَلَ شيئاً آخر في حياته... وافهَمْ أيضاً أنك على أسفلِ درجةٍ من سُلَّم الحياة. ويمكنُك، إذا أردْتَ، أن ترْقى درجةً درجة حتى تصِلَ إلى الأعلى. ولكنَّ هذا يتطلَّبُ منك أن ترتقب الظروف المناسبة. أَصْغِ إلى دروسي، واستمِعْ إلى نصائحي! وحين تكبر ستُدْرِكُ قيمة نصائح هذا العجوز الذي ملأكَ رُعباً، حين فَصَلَكَ عن مُرَبِّيَتِك.. إنني على ثقةٍ بأن لقاءنا سيجعلُكَ سعيداً...

لماذا يتكلَّم المعلِّمُ بهذه اللهجة؟ سؤالٌ أثارَ في نفسي الرَّغبةَ في معرفةِ طوايا نفسِهِ. إذا كان هو على أعلى درجات سُلَّمِ الحياة – كما قال – فلماذا هو الآن في الدَّرْكِ الأسفلِ منها؟

إنَّه يَزْعُمُ أنَّ بإمكاني أن أَرتفعَ إذا أردت؛ أنا الذي لم

أكُنْ شيئاً، ولا يَعْلَم شيئاً. ولكنْ... لماذا، انحدر هو من الأعلى؟

وفي أواسط سهلٍ تُحْرِقُهُ الشمسُ وَوَهْجُ الحرّ أشار فيتاليس إليَّ:

– « في هذا البلد، وفي هذه المزرعة، وُلِدَ رَجُلٌ قَتَلَ الملايين والجنود.. بدأ حياته أجيراً في إصطبل، وانتهى أميراً ومَلِكاً، جعلوهُ بطلاً، وأطلقوا اسمَهُ على هذه القرية « مورات ». لقد عَرَفْتُهُ، وطالماتَحدَّثْتُ معَهُ.»

– « أَتَحدَّثْتَ معَهُ وهو أجير؟ »

– « لا... بل حين كان مَلِكاً. رأيتُهُ في نابولي، وعرفتُهُ بين أتباعه.»

– « إذاً، أنتَ عَرَفْتَ ملكاً؟ »

وضحكَ فيتاليس حتى الأعماق.

وكُنّا جالسَيْنِ على مقعد، إزاء الاصطبل؛ وقد خفَّفَ اللّيْلُ من وَطْأَةِ الحرِّ اللاهب. وكانت الصراصير ترسل غناءها الرتيب. وأمامنا، فوق سقوف البيوت، راح القمرُ يسطع في الأفق.

كانت ليلتُنا نديَّة، بمقدارِ ما كان يَوْمنا لاهِباً.

سألني فيتاليس:

- « هل تريدُ النوم؟ أم تريدُ أنْ أقصَّ عليكَ تاريخَ هذا الملك؟»
- « لا. قُصَّ عليَّ أنباء الملك!»

وراحَ يَقُصُّ عليَّ ... وأنا أفكِّر: هل يكونُ هذا ممكناً؟ ولكنَّهُ هو الحقيقة.. كم شاهَدَ فيتاليس من أشياءَ كثيرة! ماذا كان هذا المعلِّم في صدر حداثته؟ وكيف صارَ في شيخوخته؟

١٠. الكارثة الأولى

كُنّا في المدينة... واضطُرِرْنا إلى قضاء فصل الشتاء، نخترق الشوارع حيناً، والأماكنَ العامَّةَ حيناً.

كان الأولادُ زبائنَنَا في الفُرْجة. يَتْبَعوننا من مكانٍ إلى مكان، دون أن يسأموا من تكرار العَرْض.

وحين تنفَّسَ نسيمُ الربيعِ بالدفء والحياة بدأ المتفرِّجون من عامَّةِ الناس يَقِلُّون عدداً.

عند ذلك عُدْنا كما بدأنا... حياةٌ ضائعة كما تشاء الظروف، على طرق طويلة.

وذاتَ مساءٍ دَخلْنا مدينةً كبيرةً، وَسَطَ سهلٍ

خَصيب... إنها مدينة « تولوز ». وباشَرْنا بالعَرْض الأول، فكان ناجحاً.

ولكنْ، ويا لَلأَسف، لم يُعْجبْ عملُنا الشّرطيَّ؛ إما لأنه لا يُحبّ الكلاب، وإما لأنّنَا قصَّرنا في مراعاته، وإمّا لسببٍ آخَرَ نجهلُهُ، فأراد منّا أن مغادر المكان.

لكن فيتاليس أَبى أن يطيعَ أوامرَ الشرطيِّ...

- « أرني مادة في نظامكَ تَمْنَعني من العمل!»
- « ليس لك أن تجادل، بل عليكَ أن تطيع!»
- « لك الحقُّ في ذلك. وسأطيعُ أمرَكَ فوراً، حين تُريني هذه المادة!»

انصرَفَ الشُّرطيُّ مُغْضَباً، وهو يُرْغي ويُزْبد، ويَتَوَعَّد.

وفي اليوم التالي اعترَضَ صفَّنا، وقال لفيتاليس:

- « يجبُ أن تَكُمَّ كلابك!»
- « لماذا أَكُمُّ كلابي؟»
- « بموجب قانونٍ تعرِفُهُ أنت...»

فكان ضجيجٌ من الناس:

- « دَعْهُ يُكْمِلُ عَرْضَه!»

كنا على وشك تقديم تمثيلية « المريض الذي يطهر نفسه ».

ولكن فيتاليس تقدَّم منه قائلاً:

– « أليس قانونُكَ يطلبُ إليَّ أن أكُمَّ كلابي؟ »

– « نعم. وبسرعة. »

– « ولكن، يا صاحب السيادة، كيف يتسنّى للعالم الطبيب « كابي » المشهور في العالم كلِّه، أن يُدْلي بنصائحِهِ لمريض كان مكمومَ الفم؟ هل تمنعُهُ من القيام بواجبه؟ »

وهنا ثار ضَحِكٌ عاصِفٌ في جمهور المتفرِّجين.

لم يَمْلِكِ الشرطيُّ صَبْرَهُ، وانفتَلَ إلى الوراء على عَقِبَيْهِ، بينما تحدَّاه السَّعدان، واضعاً قبضتَهُ على خَصْرِهِ عدَّةَ دقائق، وظلَّ الإثنانِ يتلاحظان، كأنَّ كلَّ واحدٍ منهما كان ينتظرُ أن يخفِضَ عينيهِ قَبْلَ الآخر.

وصاح الشُّرطيُّ:

– « إذا لم تَكُمَّ كلابَك غداً، سأقيمُ عليك دعوى... هل فهمت؟ »

أجابه فيتاليس:

– « إلى الغد، أيها السيِّد، إلى الغد! »

وعُدْنا، في الغد، إلى عَرْضنا.

كنتُ وحدي ، حين ظَهَرَ الشرطي، ولم يَكُنْ معي فيتاليس.

ورماني بعَيْنَيْه المتَقدَتَيْن غضباً.

كيف ينتهي الأمر؟ إنني وحدي... بل إنني سأنسحبُ إذا نهرَني.

لا أدري كيف كان ذلك. ظن أنني أتحدَّاه وأسخَرَ منه. وبقوَّةٍ، قطع الحبل. وانقضَّ عليَّ، فإذا بي أقعُ على ظهري. وحين حاولتُ النهوضَ على قدميَّ، رأيتُ فيتاليس يَحُوْلُ بيني وبين الشرطي.

وصاح به فيتاليس:

– « إياك أن تَمُدَّ إليه قبضتَكَ، أيُّها الجبان! »

وأراد الشرطيُّ أن يحرِّكَ قبضَتَهُ، فشدَّ عليها فيتاليس بقبْضَتِهِ. ومرَّتْ لَحَظاتٌ، وهما مُتَجابهان. وفي لحظةٍ خاطفةٍ سلَّ الشُّرطيُّ يَدَه، وأخذَ بعُنُقِ مُعَلِّمي، وطَرَحَهُ أرضاً.

وصاح فيتاليس:

– « أيَّ شيء تريد منَّا؟ »

– « إنك موقوف. هَلُمَّ معي إلى المخفر! »

- « ولكنّ هذا لا يستدعي أن تضربَ هذا الغلام.»

والتفتَ إليّ فيتاليس قائلاً:

- « إذهَبْ أنت إلى المزرعة، وابقَ بجانب الكلاب، حتى تأتيك أخباري.»

وهكذا انتهى هذا المشهدُ الذي بدأهُ معلّمي بسُخْرية، وانتهى بمأساة! لكنَّ الكلابَ أبت إلاَّ أن تَتْبَعَ خُطى فيتاليس، فنَهَرَها، فارتدَّت... إنها الآنَ مكمومة... لا بالحديد، ولكنْ بالأشرطة التي تَضَعُها على وجوهها أثناء المشهد.

وتفرَّقَ الجمع، إلاَّ نفراً قليلاً كان يُرَدِّد:

- « إنَّ الكَهْلَ على حقٍّ... وإنَّ الشرطي على باطل.»

ودخلْتُ المزرعةَ حزيناً، قَلقاً، لا أعلم مصيري.

لقد حَزِنْتُ كثيراً لنهاية فيتاليس... الذي ربطتْني به صداقةٌ عميقة. لقد عشنا معاً حياةً واحدة، من الصباح حتى المساء. وتقاسَمْنا معاً سريراً من القش اليابس. لقد كانت عنايتُهُ بي أكثرَ من عناية أب بابنه. كان يُعَلِّمُني ويفسِّر لي كلَّ شيءٍ أراه. كم قاسَمَني أرديتَهُ في لَذْع البرد! وكم شاركَني في السَّرَّاء والضَّرَّاء! لَنْ أنسَى كلماتِهِ العذبة،

ونصائِحَهُ الأبويَّة، وحَنَانَهُ السَّخِيَّ. إنه كان يُحبني، وكنت أحبه!

لقد انفصلنا؛ فمتى يكون اللقاء؟ إلى كم يدومُ حَبْسُهُ؟ ماذا أصنعُ خلالَ ذلك؟ كيف أعيش؟ وأين أجدُ طعامي؟

كان فيتاليس يحملُ عادةً دراهمَهُ معه؛ ولم يكن هنالكَ فرصةٌ ليعطيني هذه الدراهم. وليس معي إلاَّ بضعةُ دُرَيْهِمات لا تقوم بقُوتي وقُوْت من معي.

وبقيتُ يومَيْن فريسةَ الهمّ الذي أرهقَ ظهري كنتُ لا أستطيعُ الخروجَ من الكوخ، ومَعَ همي كنتُ أحملُ همَّ مَنْ معي.

وفي اليومِ الثالثِ جاءني كتابٌ من فيتاليس:

« إنني موقوف، ولقد أحالوني إلى المحكمة بعد أسبوع. لا شك أن غضبي خَلَقَ لي هذه المتاعب. تعال إليَّ. كن حكيماً، ولا تَنْسَ أصحابي!»

ويومَ المحاكمة، دخلتُ لأرى فيتاليس.

كان يُجيل النظرَ هُنا وهناك، وحين وقعَ نظرَهُ عليَّ، غَمَرَ الفرَحُ وَجْهَهُ الحزين. وبالرَّغم مني، اخضلَّتْ عيناي بالدموع.

وخاطبَ رئيس المحكمة فيتاليس:

- « أهذا كلُّ ما هيّأتَهُ للدفاع؟»

- « من أجلي، لا أريدُ شيئاً، ولكنْ من أجلِ هذا الغلامِ الذي بقيَ وَحْدَهُ أطلُبُ عطفكم. وأرجو أن لا يكون حَبْسي طويلاً.»

وفاهَ الرئيسُ بالحكم:

- « شهران..!»

وخلال دموعي، شاهَدْتُ البابَ الذي فُتح لفيتاليس، يُفْتَحُ الآنَ مَرّةً ثانية. وراحَ فيتاليس يَتْبع الدركيّ، ثمّ أُغلق الباب.

شهران... ما أطولَهُما!

إلى أينَ أرحَل؟

١١. في السفينة

وحين عُدْتُ إلى المزرعة، بقَلْب صابر، وعَيْنين مُخْضَلّتَيْن بالدمع، وجدتُ صاحبَ المزرعة على الباب.

سألني:

- « أين معلمك؟»
- «لقد حُكم عليه.»

- « بكم؟»
- « بشهرين.»
- « وماذا تريدُ أن تصنعَ خلالَ هذين الشهرين؟»
- « لا أدري!»
- « هل لديك دراهم تكفيك وتكفي الكلاب؟»
- « لا.»
- « إذاً، يجب أن ترحل.»
- « وإلى أين أرحل؟»
- « هذا ليس من شأني.»
- « ولكِنّه، حين يَخْرُج من سجنه، سيحاسبُك...»
- « يجب أن تَتْرُك المكانَ فوراً. ولا تَضْطَرَّني إلى طَرْدِك!»

إذاً، كان لا بد من الرحيل...

لا أملك إلا نَزْراً من المال. وليس في حقيبتي إلاَّ قطعة خبز...

قسمتُ القطعة بيننا، وجَرَّبْتُ أن أقصَّ أمري على هؤلاء الأصدقاء، لعلَّهُمْ يفهمون أنني لا أملك أفضل مما فعلت.

وبدأ مَسِيْرُنا مَرَّةً ثانية... ولكنَّ الرَّكْبَ كان يسيرُ هذه المرة، بدون فيتاليس!

وفي أوَّلِ مَخْبز، وَقَفْتُ، واشتريْتُ خبزاً لي ولمن معي... فَرِحَتِ الكلاب، حين شمَّتْ رائحةَ الخبز، وراحتْ تتواثبُ حولي فَرَحاً. وسَعْداني الصغيرُ كان يَجْذِبُني بشَعْري، مُطْلقاً صَيْحاتٍ صغيرةً تنِمُّ عن المرح.

وعندَ أوَّل شجرة، أَلْقَيْتُ قيثارتي، وجَلَسْتُ على الأعشاب، وراحتِ الكلابُ والسَّعدانُ (الذي ظل واقفاً) تنتظر. وتقاسمنا الخبز... وكلٌّ قَنعَ بنصيبه. وكلٌّ أدرك، بعد غَيْبةِ المعلِّم، اننا نعاني أزمةً خطيرة!

بعد لَحظاتٍ من الراحة أعطَيْتُ إشارتي بالرحيل.

الطريق يتطاولُ، والأميالُ تتبعُها أميال، والشمسُ تَجْنَحُ إلى الغروب، ولَمْ نجدْ مأْوىً نبيتُ فيه.

وَجدْنا أنفُسَنا في غابةٍ مظلمةٍ، حزينةٍ، مقفرةٍ؛ كان لا بُدَّ من أن نقضيَ ليلَتَنا فيها، والكلابُ تحرُسُنا!

كنتُ أُفكِّرُ في الطعام؛ كيف أستطيعُ أن أُقِيتَ هؤلاء الأصدقاء؟ وفي أي مكان أستطيع أن أعمل لتأمين معاشي؟

لبثْتُ طويلاً، فريسةَ هذه الأسئلة المثيرة... وكنت

أتأمَّلُ في هذه النجوم السابحةِ فوق رأسي، في هذا الفضاء المظلم. حيث لا نسمةَ تتحرَّك، ولا صيحةَ عُصْفور تتردَّد، ولا وَقْعَ عجَلَةٍ على الطريق... لا شيءَ إلا الفراغ، والوحدة، والوحشة!

أحسَسْتُ أن عينَيَّ تفيضانِ بالدمع...

أين الأم بربران؟ أين فيتاليس البائس؟

انطرَحْتُ على بطني، وأنا أبكي ولم أستطِعِ النهوضَ حين شَعَرْتُ بأنفاسٍ دافئةٍ تتغَلْغَلُ في شَعْري. إلتفَتُّ؛ فأحسَسْتُ بلسانٍ عَذْبٍ، دافىء يَمُرّ على وَجْهي؛ هذا هو كابي الذي سمعَ بكائي، فأقبلَ يساعدُني ويُسَلِّيني!

حضَنْتُه بين ذراعيَّ، وقَبَّلتُ بُوْزَهُ الطَّرِيَّ؛ فأرسَلَ عِدَّةَ تَنَهُّداتٍ فَوْقَ رأسي، كأنَّهُ يشارِكُني في البكاء.

وحينَ استَيْقَظْتُ كان النورُ يملأ الآفاق، وكان كابي لا يزالُ، معي، ينظرُ إليَّ.

العصافيرُ كانت تُغَرِّدُ، ومن بعيدٍ كان قَرْعُ الناقوس يُعلن مَوْلدَ الصباح. والشمسُ تَبْعَثُ بأشعَّتها الحامية فتُدْفِىء القلوبَ كما تُدْفِىء الأجساد.

وعاوَدنا المسيرَ...

وانتهَيْنا إلى ساقيةٍ صغيرةٍ. وتأمّلتُ في الساقية. فإذا

هيَ تَقُودُنا إلى قناة واسعة تسمح للسفن الكبيرة بالعبور.

وتَقَدَّمَتْ منّا احداها، وَوَقَفَتْ تجاهَنا.

ما أجملَها من سفينة!

كانت على مدارجها الواسعةِ مقاعدُ مَصْفوفة.

ورأيتُ، على أحد هذه المقاعدِ، غلاماً صغيراً يُشْبِهُني؛ ووراءَهُ وقفَتْ سيِّدةٌ جميلةٌ على وجهها مَسْحةٌ من الكآبة.

وحينَ رأى هذا الغلامُ كلابي، وهي تَقْفِزُ في الهواء، وسَعْداني الصغير، رفعَ رأسه وصاح بلهفة:

– «ما أجملَ هذا المشهد!»

وهنا التفتَتْ إليَّ تلك السيدةُ الجميلةُ التي لا بُدَّ أنها أمه، وسألتني:

– «ماذا تَصْنع، هناك، يا صغيري؟»

– «إنني أسعى وراء الرِّزق».

وأعطَيْتُ الإشارةَ إلى كلابي بأن تمثِّلَ دَوْرَها...

– «حسن! اتركْها تلعَبُ أيضاً!»

وعندئذٍ، طَلَبْتُ من كلابي أن تمثِّلَ الأدوارَ التي تعلّمَتْها؛ فراح سعداني الصغيرُ يَرْقُص، وكلابي تَقفِز...

كنتُ مسروراً بكلِّ الأدوار الناجحة التي قدَّمَها أصحابي.

واقترَبَتِ السفينةُ من الطريق، وتَبَيَّنْتُ ملامحَ الغلام الصغير: وجهٌ أبيض، وعينان متعبتان. إنه أشقر، ولكنّه نحيل.

كانت أمُّهُ فرحةً بضحكاتِ صغيرها... ولكنَّ وراء فرحها نظراتٍ حزينة.

سألتني الأم:

– «كم يدفعون لك؟»

– «كما يحبون؛ ومن كانت مهنتُهُ تسليةَ الناس يأخُذُ أقلَّ شيء.»

– «وهل يكفيك هذا العمل لتأمين نفقات حياتك؟»

– «نعم.»

– «لا شك أن لك معلّماً يُجْبرك على أن تأتيَهُ بكَسْبِكَ كلَّ مساء.»

– «إنَّ لي معلّماً، لكنّه لا يُجبرني على ذلك. وكلُّ ما يطلبُهُ مني هو أن أكسبَ من المال ما يقوم بأَوَدي، وأوَدِ هذه الكلاب.»

لقد كانتِ السيدةُ من الرِّقة بحيث جَرُؤْتُ على أن أقصَّ عليها ما أصابَ معَلِّمي، وما أصابني، منذ حَبْسِهِ. فقالت:

- « وَيْلتاه! كم أنتَ جائع! »

وأجبتها لأوّل مرة، بلا شعورِ مني:

- « أجل، أنا جائع، يا أماه! »

- « لقد كانت هذهِ الكلمةُ كافيةً لإثارةِ مشاعر السيِّدة. فحملَتْنا إلى سفينتها، وأعدّتْ لنا مائدةً شهية! كانتْ تنظرُ إلينا، ونحن نأكل. ولكنْ، فجأةً، خاطبها ابنُها بلغةٍ أجنبية، فالتفتَتْ إليَّ، وقالت:

- « هل تريدُ البقاءَ معنا هنا؟ »

البقاء مَعَها، على ظهر هذه السفينةِ الجميلة، برفْقة هذا الولدِ اللطيف!!

وأَكْمَلَتْ هي:

- « إنّ ولدي يطلبُ ذلك، إبقَ معَنا، أيها الصغير! إنكَ تَسُرُّنا وتُسَلِّينا، وسوف تُغَنّي لنا كثيراً. »

لم أستطعِ الكلامَ، لفَرْط ما أخذَني من السرور.. تناولتُ يَدَها ولثَمْتُها، فالتَمعَتْ عيناها بنورٍ عَذْبٍ،

وبادلَتْني بَسْمةً ببسمةٍ، ولثَمَتْ جبيني.

- « اتّفقنا، أيُّها الصغير البائس؛ ستبقى معنا. »

إنَّ حياتي الجديدةَ قد بدأتْ. السريرُ كان رائعاً، والغطاء كان جميلاً، ليِّناً تحت جسدي المتعَب... لقد ولّى فراشُ القشِّ والتبن إلى الأبد!

وفي الصباح، نَهَضْتُ باكراً، ورُحْتُ أتفقّد كلابي وسَعداني لأرى كيف قَضَتْ ليلَتَها.

كانت تنامُ نوماً عميقاً، كأنّما هذه السفينةُ كانت بَيْتَها الأوّل. فأيقَظْتُها، وقُدْتُها إلى الطريق، حيثُ تَرْتَعُ وتلعبُ بين الأعشاب. وعند الانتهاءِ من هذهِ النّزهةِ عُدْنا إلى هذا « البيت » العائم على الماء الساكن.

لقد كانتِ السيدة « ميليجان » وولدها « أرتور » إنجليزيَّين. فقدَتْ هي زوجَها منذ عهدٍ بعيد، وكان لها ولدٌ أكبرُ سناً من هذا، ولكني لا أعلمُ ما مصيرُهُ، إنّها لم تحدِّثْني عنه قطٌّ.

كانت حياتي، على السفينة، تمضي عَذْبةً، هادئةً، تختلفُ عن كلِّ حياةٍ عانيتُها في السابق. كم أنا سعيدٌ الآن! في المساء، كنتُ أُغني لأصدقائي، وفي النهار كنا نأكلُ معاً، ونتسلّى مع كلابي وسَعْداني اللّطيف.

كنتُ أتأمَّلُ في هذا المشهد؛ وفي المساء، كانتِ السيدةُ « ميليجان » ترتّب صوراً ورسوماً، على ضوء المصباح.

كنت حين أراها ترنو إلى ولدها بعطفٍ أشعر بأنني وحيدٌ في هذا الوجود. ولكني كنتُ أُفضّلُ أن أكون قوياً، صحيح الجسم على أن أكونَ مثلَ هذا الصغيرِ الضعيف، الهزيل!

ولكنْ، من كانَ الأكثرَ فضلاً عليَّ؟

في الحق كان الاثنان عزيزَيْن عليَّ؛ بهما ذُقْتُ سعادة الحياة.

ولكنَّ هذه الأيامَ السعيدةَ لم تكُنْ، ويا للأَسَف، بطويلة.

إن خروج فيتاليس من السجن أمسى قريباً. والأيامُ الطويلة التي قضاها بين جدران السجن قد انطوت.

يجب عليَّ الآن، أن ألتحق بمعلّمي فيتاليس الذي كان شفيقاً عليَّ.

وذاتَ يوم ؛ فاتحتُ أصدقائي بأني مُضْطَرٌّ إلى النزوح عنهم... فأرادَ « أرتور » أن يتمسَّك بي، لكنَّ أمَّهُ أدركَتْ حقيقَةَ حالي، وقالت لي:

– « سنكتبُ للسيد فيتاليس: سأرجوه أن يسمَحَ لي

بأن أستَبْقِيَكَ معنا، فتكمل دراستك؛ وأنا على ثقةٍ بأنّهُ يريدُ لك الخير... وعند ذلك، سنعالج المسألة مع أهلك. »

كم روَّعتني هذه الكلمة: « مع أهلك »! إن أصدقائي لا يعلمون أنني ولدٌ لقيطٌ لا أهل له. وإذا عَلموا فهل يَحْرِصون على احتضاني؟

لم أستطعْ أن أجيب السيدة « ميليجان » ولو بكلمة. لقد ابتسمتْ لي وأخذَتْ ورقةً. وكَتَبَتْ إلى فيتاليس تُعلِمُهُ أين نحن. ومَعَ رسالتها بعثَتْ إليه بأجرة الطريق.

وكان جوابُ فيتاليس أنّه سيصل نهار السبت. بقطار الساعة الثانية.

وبإذن من السيدة، ذهبتُ أستقبله في المحطة، معي كلابي وسعداني اللطيف. وما إنْ أطَلَّ علينا من باب القطار، حتى تواثبتِ الكلابُ نحوه، وأخذ السَّعدانُ اللطيف يُرسل أصواتاً حنونة. كلٌّ منا يعبِّر عنْ سعادته بطريقته الخاصة.

نظرتُ إلى فيتاليس، وأنا سعيد بمرآه، ولكن كم تَغَيَّرَ وكم تبدَّلَتْ سحنَتُهُ، خلاَلَ هذين الشهرين!

لقدِ اكتهَل، واسترخَتْ كتِفاه، وملأ الشيبُ رأسَهُ.

وأثناء عَوْدَتِنا إلى حيثُ تنزل السيدة، قَصَصْتُ عليه

ما أصابني من مصاعب، ومخاوف.

وحين بَلَغْنا المنزل، تَرَكَني فيتاليس في الأسفل، مع الكلاب؛ وبعد عدَّة دقائقَ عاد وقال لي:

- «والآن، ودّع السيدة! إننا سنرحل!»

ما كنتُ أبغي توديعَ أصحابي بهذه السرعة. ولم أفُهْ بكلمة. ونظرتُ إليه من غير أن أتكلّم.

- «لقد قُلْتُ لك سابقاً، إنكَ ذو منفعةٍ لي، كما أنني ذو منفعة لك.»

وحين دخلتُ غرفةَ السيدة، انطرحتُ على «أرتور» وعانقتُه، ثم لَثَمْتُ يَدَ السيّدة، وقلتُ لها:

- «أرتور! سأحبُك دائماً، وأنتِ يا سيّدتي، لن أنساكِ أبداً.»

وبعدَ لحظة، كنتُ بجانب معلمي.

وقال لي:

- «لنمش!»

وهكذا تركتُ، بالرّغم مني، أوّلَ أصدقائي، لأجدَ نفسي، من جديد أخوضُ المتاعب.

١٢ . ثلوج وذئاب

حملتُ قيثارتي ورُحْت أتبعُ فيتاليس على طرقٍ مجهولة، مليئةٍ بالتراب. كانت الشمسُ تلفحني حيناً، وكان المطرُ ينهلُ عليَّ حيناً.

وكان ينبغي لي أن أُمثِّلَ دَورَ الحيوان، أمام المتفرّجين، أُضحكهم، وأُسلّيهم. أنا أبكي وهم يضحكون، أنا أشقى وهم يَسْعَدون.

كانت أفكاري تطيرُ بي نحو «أرتور» وأمِّه. كم كانت أغطيتي الآن خشنة، وكم كان طعامي فقيراً! ومع هذا كان فيتاليس صديقي. إنه لا يزالُ عندي أفضلَ صاحبٍ لي وأرقَّ إنسانٍ عليّ، كنت أشعر بأنني لست وحيداً في هذا العالم. وبأنَّ معلمي هو خيرُ معلّم.

لبثْنا زمناً طويلاً دون أن نتحدَّثَ بكلمةٍ عن تلك السيدة. وأخيراً نَطَقَتْ باسمها شفتاي.

قال فيتاليس:

- «إنك تحبُّ هذه السيدة؟ لقد فهمتُ ذلك. لقد كانت سيدةً صالحة، ولا ينبغي لك أن تنساها.»

ثم أكمل قوله:

- « ولكنْ، كان لا بُدَّ من ذلك... »

أدركت ما يريدُ قوله. كان يفكِّرُ أن الحياةَ معه قاسية جداً. ولكنَّها، مع ذلك، كانت أنفعَ من حياةٍ سهلةٍ مع أصدقائي.

وانطلقنا على ضفة نهر « الرون ». ومن حينٍ إلى حين كنتُ أبحثُ عن موضعِ السفينة دونَ أن أراها.

وذاتَ يومٍ قال لي فيتاليس:

- « سنَتّجه نحو مدينة ديجون! »

كم كان حُزْني كبيراً، لأن النّهر لن يَمُرَّ بهذه المدينة.

- « ومن هذه المدينة سنتوجَّهُ نحو « باريس » حيثُ يُمكِنُنا عَرْضُ أدوارنا التمثيلية. »

لكنَّ باريس كانتْ بعيدةً، بعيدةً، والطريقُ الذي يَصِلُ إليها يجبُ أن نقطعَهُ سَيْراً على الأقدام.

لقد كان الجوُّ جميلاً صافيَ الأديم...

نزَلْنا في إحدى القُرَى عند المساء؛ وبتْنا في إحدى حُجُراتِ فُندقها الصغير.

وعند الصباح، حين استيْقَظْت، لم أَلمَحْ نهاراً ساطعاً، ولا شمساً مُشْرقة

البردُ لاذع، والجوُّ حالك قاتم. والريحُ تَعْوي في الخارج عُواءً رهيباً.

استعدَّ معلِّمي للرحيل؛ لكنَّ صاحبَ الفندق أهاب به:

- « إنَّ الجوَّ رديء جداً... والمصاعبُ ستَلْقاك إذا خَرَجْتَ في هذه الحالة. »

لكنّ معلّمي لم يُبالِ بهذه النصيحة!

وانطلَقْنا تحت سماءٍ قاتمة، وريح تصفرُ صفيراً مرعباً. لا إنسانَ يَلُوحُ على الطريق، ولا ظِلَّ يَسْرَحُ في الحقل. ولا ضجيجَ مَرْكبة... لا شيء يُسمَعُ إلا زقزقةَ العصافير، دون أن تقَعَ عليها أعيُنُنا، لأنها كانَتْ تبحَثُ عن ملاجىء لها بين أوراق الشجر. وكان الشيءُ الوحيد الذي نراه على الطريق غرباناً أذيالُها مرتفعة، ومناقيرُها في الهواء، تتواثَبُ إلى الأشجارِ كلّما دَنَوْنا منها. مُرْسِلَةً صَيْحاتٍ مُنْكَرَة، كأنّها شتائمُ لنا!

وفجأةً ارتَفَعَتْ في السماء، من ناحية الشّمال، نقطةٌ بيضاء، ما لبثت أن اتّسعَتْ، وهي قادمةٌ نحوَنا. وسمِعنا همهمَةً غريبةً مُبْهمةً... تُرْسِلُها طيورٌ وحشيةٌ مقبلةٌ من الشّمال. ما كان أجمَلَها نُقَطاً بيضاءَ تَسْطَعُ في السماء السوداء!

كانتِ القَرْيَةُ التي نجتازُها تُخيِّم عليها كآبةٌ مخيفةٌ،

محفوفةٌ بالسكون. وكانت الريح الشمالية تنفُخُ، حاملةً معها سُحُباً نحاسيَّةَ اللَّوْنِ، مُثْقَلَةً، منخفضةً، كأنها تريدُ الاستلقاءَ على ذوائبِ الأشجار.

وسَريعاً، أخذَتْ كُرَاتٌ من الثلج، كأنها الفَراش، تَمرُّ أمام أعْيُننا. كانت تَصْعد، وكانت تَنْخَفِض، وكانَتْ تَدُورُ على نفسِها، دون أن تَمَسَّ الأرض.

لم نقطَعْ من الدَّرب إلا قليلاً، وبدا لي أن الوصولَ إلى قرية «تروا» في هذه الحالة مستحيل.

ما كنتُ أَدْري قبلَ اليوم ما هي العاصفةُ الثلجية؟

واليومَ عرفْتُها، على صورةٍ لا أنساها أبداً.

هذا هو الثلج... إنه ليس بفراشاتٍ تطير حولنا، وإنما هو كتل ثلجية تغمرنا.

عندئذٍ قال فيتاليس:

– «إن الوصولَ عسير... يجب أنْ نبحث عن بيت نلجأ إليه.»

ولكن أين نجدُ هذا البيت؟ وهل نجدُهُ قبل أن يطمس الثلجُ كلَّ طريق إليه؟

لا بُدَّ من مواصلة المسير... ضدَّ الثلج، وضدَّ الريح

دون أن نتكلّم. وأحياناً كنا نلتفت إلى الوراء لنتنشّقَ الهواء.

الكلاب لم تَعُدْ تتقدَّمُ إلى الأمام. بل كانت تمشي على أعقابنا، تريد ملجأ لا نستطيع تقديمه إليها.

أخذنا نتقدَّمُ على مَهَلٍ إلى الأمام، وقد انقطعَ الأمَلُ في الوصول إلى أي ملجأ يحمينا من لَذْع الريح.

وبينَ الحينِ والحينِ، كنتُ ألمح فيتاليس يُكثر الالتفاتَ إلى شماله، كأنه يبحثُ عن شيء.

ولكنْ ماذا عساه يَجد؟

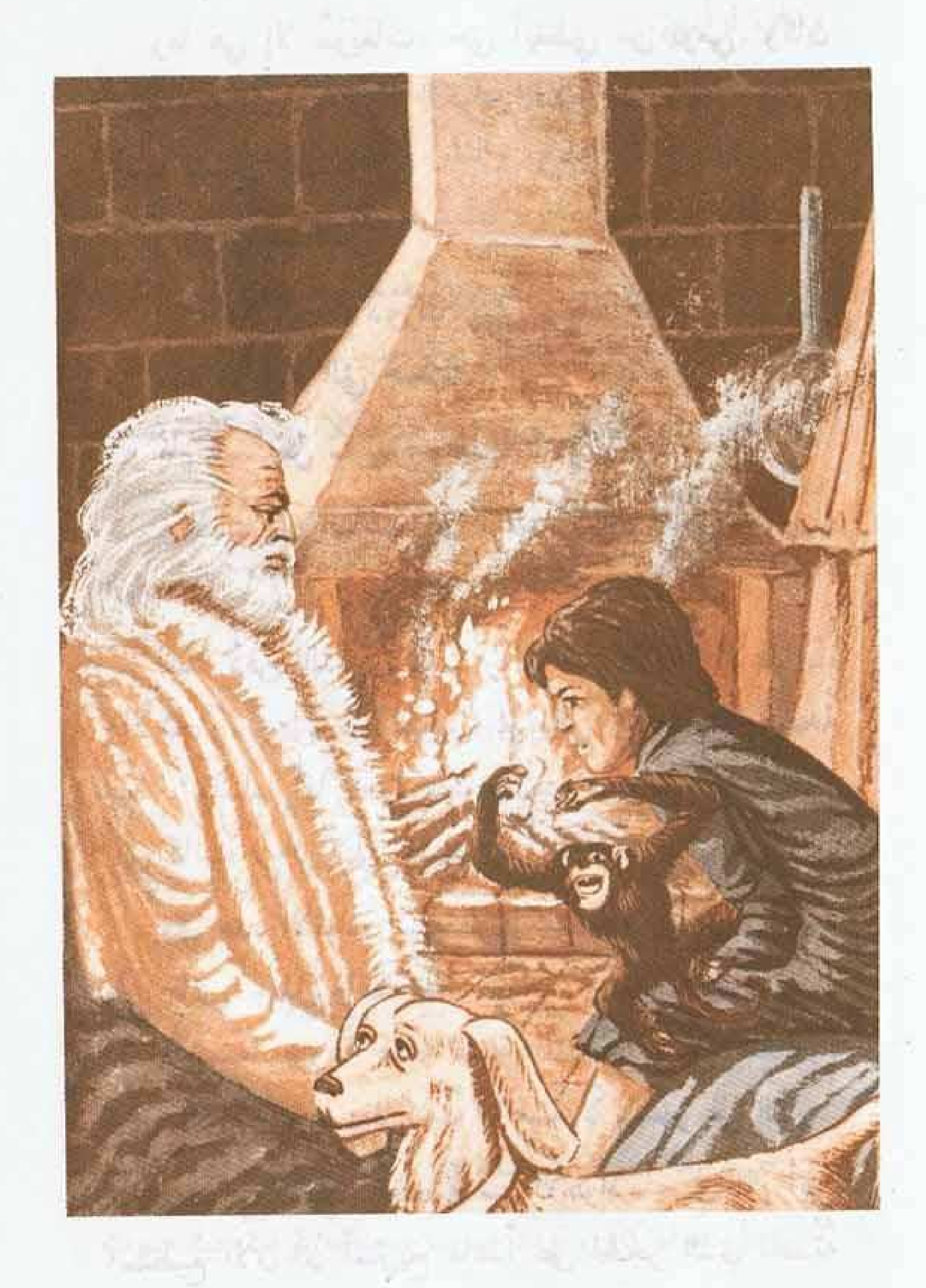
أما أنا فكان ناظري يسبح أمامي، على الطريق، بقَدْر ما يستطيع النظر؛ لأرى إذا كان لهذه الغابة نهاية.

ومع هذا، كان يجبُ السيرُ بدون يأس... وكانت أقدامُنا تغوص حتى الرُّكَب، وقُبَّعاتنا تزداد ثِقلاً.

وفجأةً، وجدتُ فيتاليس يَمُدّ يَدَهُ، نحو الشمال، ليجذبَ انتباهي؛ ونظرتُ فإذا شبهُ كوخٍ مسقوفٍ بالأغصان، تغطّيه الثلوج.

إنه ملجؤنا الذي يُشْبه البيت...

انطلَقْنا نحوه، وكانتِ الكلابُ أول من وصل إليه،



ما أروع النار في مثل حالتنا...

وراحت تتمرَّغ على ترابه، مرسلةً عواء الفرح.

لم يكن فرحنا بهِ أقلَّ من فَرَحها.

وهتف فيتاليس:

- «علينا بالنار!»

وكان البحثُ عن أغصان يابسة عسيراً علينا، ولكنّ ذلك غيرُ مستحيل. وبعد قليلٍ سطعتِ النارُ في قلب الكوخ.

- «ما أروعَ النار في مثل حالتنا! إنها رمز الحياة.»

الآن، أيْقنّا بأن الموتَ صار بعيداً عنا... ولكن أيُّ شيءٍ يَسُدُّ جوعَنا؟

كان فيتاليس على وعيٍ من أمره: فقد خبأَ شيئاً من الزاد: قطعاً من الخبز، وقليلاً من الجبن. تكفينا في هذا المأزق.

ثم التفت فيتاليس إليَّ وقال:

- «نم الآنَ، يا ريمي! سأوقظك حين أُريدُ النوم. يجب أن نتناوب لكي يستطيعَ كلُّ واحدٍ منا السَّهرَ على النار، حتى لا تنطفىء. ويجبُ أن نأخذ حِذْرنا من البرد الذي لا بُدَّ أن يَشْتَدَّ بعد انقطاع الثلج.»

وما هي إلا سُوَيْعَات، حتى أيقظني من نومي، وكان الليلُ لا يزالُ قاتماً وراء الكوخ. الثلجُ قد انقطع، ونارُنا كانت تشتعل باستمرار.

وقال لي فيتاليس:

– « والآن جاء دَوْرُك. ليس عليك إلا أن تُلقِم النار من هذه الأعواد التي جمعتُها. »

نام فيتاليس سريعاً، وظلّت النارُ تهدُر.

ونهضتُ إلى الباب، وبي رغبةٌ في أن أتأمّلَ ما وراء الباب...

لقد دَفَنَ الثلجُ، تحت ردائهِ الأبيضِ، الأعشابَ، والأشجارَ. وعلى مَدّ البَصَر، لم يكن هنالك إلا صفحةٌ بيضاء ملساء. أما السماءُ فقد تزيّنَتْ من جديد، بالنُّجوم التي كانَتْ تُرْخي على المشهدِ نوراً شاحباً.

وفي هذه الأثناء، استيقظ الكلب « زوربينو » فوثب إلى جانبي، وظلّ واقفاً خلفَ الباب. وحين لم تَقْدِرْ عيناه أن تستمتعا بروعة هذه الليلة المثلجة، عاوَدَهُ الضجَر، وعَزَمَ على الخروج، بينما كنتُ أنا مشغولاً بالسَّهَر على النار.

وبعدَ أن ألقمتُها قبضةً من الأعوادِ، خُيِّلَ إليَّ أنني أستطيعُ الآن أنْ أستريحَ قاعداً على الحجر الذي اتخذتُهُ

وِسادةً لرأسي.

لقد كان معلمي غارقاً في النوم، وكانت الكلابُ والقردُ غارقةً في النوم، والنارُ وَحْدَها ترتفع منها ألسنةُ لهبٍ تغمر السقف، ناثرةً قِطعاً من الشرر تعكّر السكون.

لبثْتُ زمناً، وأنا أتسلّى برؤية هذا المشهد، ولكنْ شيئاً فشيئاً غلبني النعاسُ فنمتُ من جديد...

وفجأةً، هَبَبْتُ على نُباح الكلاب، وكانَ صَوْتُ فيتاليس يسأل:

– « ماذا هنالك؟ »

– « لا أدري... »

– « لقد نمتَ، والنارُ قد انطفأت. »

إن النباح لا يزال يتوالى: إنه نباح « كابي ». ولكنَّ الأمرَ غريب. فلا « زوربينو » ولا « دولسي » يجيبان رفيقَهُما على نُباحه.

إن كابي يطرَحُ نفسَهُ على الباب، ولكنه لا يخرُجُ منه. بينما يواصِلُ نباحَهُ.

– « ماذا يجري هناك؟ »

وعلى عُواء كابي، تَرَدَّدَ صوتٌ ضعيفٌ عرفتُ فيه صوت

« دولسي » وكان هذا الصوتُ آتياً من مسافةٍ غيرِ بعيدةٍ عن كوخنا.

وصاح بي فيتاليس:

- « هَلُمَّ نبحث عنهما! انْطَلِقْ يا ريمي! وأنتَ يا كابي، إلى الأمام. »

وفي اللحظة التي هَمَمْنا بالخروج فيها، علا عُواءٌ مخيفٌ في سكينة الليل، فاندسَّ كابي بين أرجلنا وهو يرتجفُ من الخوف.

- « إنـه عواءُ ذئاب، لا كـلاب! أين زوربينو ودولسي؟ »

لم أستطعْ أن أجيب، ولكن مما لا شك فيه أن الكلبين غادرا الكوخ خلال رقادي.

هل يا تُرى انقضّت عليهما الذئاب؟

صاح بي فيتاليس:

- « إحملْ هذا العُودَ المشتعل! يجبُ إنقاذهُما من الموت. »

لم أتردَّدْ، وحملت عوداً متوهِّجاً بالحمرة. ولكننا لم نقع على كلاب، ولا على ذئاب... وإنما كان هنالك آثار نقشَتْها الكلابُ بأرجلها وأيديها، على بساط الثلج.

اتَّبَعْنا هذه الآثار...

وكأن الشجاعة عاودت « كابي » فوثب عنّا، يريد أن يلقى رفيقيه.

وهتف به معلمي:

- « إي كابي! إبحَثْ معنا! »

وفي الوقت ذاته، راح يدعو الكلبين الغائبين.

ولكن لا عُواءَ، ولا جواب!

ولكنّ كابي، بدلاً من أن يُتابعَ بحثَهُ، عاد إلينا يتمسَّحُ بنا مذعوراً.

ومن جديد، راح فيتاليس يرسل نداءه.

أَصغينا قليلاً، لم يجبنا إلا الصمت العميق.

ردَّد فيتاليس بلهجة حزينة:

- « يا زوربينو البائس! يا دولسي النعِسة! إن الذئاب قد حملتهما. لماذا تركتَهما يا ريمي يخرجان؟ »

لم يكن لي من جواب على هذا السؤال. ولكني قلت:

- « يجب أن نبحث عنهما! »

واندفعتُ إلى الأمام، ولكن فيتاليس أخذ بيدي قائلاً:

- «وفي أيّ مكان نبحث عنهما؟»

- «لا أدري... في كل مكان.»

- «ولكن كيف نهتدي إلى طريقنا، وسط هذه الظلمة الحالكة؟ بين هذه الثلوج المتراكمة؟»

وفي الحقيقة لم يكن هذا سهلاً. لقد كان الثلجُ يَغْمُرُ رُكَبنا. ومن العسير على العُود المشتعِل أن يُرْشِدَنا إلى الطريق.

قال فيتاليس:

- «إذا لم يَرُدّا على ندائي فمعنى ذلك أنهما بعيدانِ عنا. وبعد ذلك، إذا خاطَرْنا في سيرنا فإن الذئابَ ستَنْقَضُّ علينا، وليس مَعَنا سلاحٌ نذودُ به عن أنفسنا.

كان فاجعاً ألاّ نتمكّن من إنقاذ هذين الصاحبين العزيزين. وكنتُ أشعر في أعماق نفسي بمسئوليّتي... لو لم أنَمْ لما تركا الكوخ!

عاد معلّمي إلى الكوخ، وتبعتُهُ، وأنا لا أزالُ أتلفَّتُ خلفي، ووقفتُ بجانبه أُصغي إلى ما يقول. ولكني ما كنتُ أرى إلا الثلجَ، ولا أسمع إلا وَقْعَهُ!

وحين دخلْنا الكوخ، فاجأنا حَدَثٌ جديد؛ ذلك أن الأعوادَ التي طرحتها في النار، هبَّتْ دفعةً واحدة. وتناثر

شَرَرُها في جميع الأطراف.

وتفقّدْتُ سعداننا الصغيرَ، فلم أَجِدْهُ.

لقد كان غطاؤُهُ حولَ النار، ولكنَّ السّعدانَ لم يكن تحت الغطاء!

ناديتُه، وناداه فيتاليس... فلم يردَّ علينا أحد.

ماذا حلَّ به؟

لا شكَّ أنه توارى، بعد أن خرجنا من الكوخ.

هل أرادَ اللّحاقَ بنا؟

تناوَلْنا قبضةً من الأعواد المشتعلة، وخرَجْنا على آثار السَّعدان، نبحثُ عنه فلم نَجِدْ له أَثَراً.

إذاً، هو لم يخرُجْ!

وعاوَدْنا البحث عنه، في الكوخ، تحتَ كلِّ غِطاء، فلم نَعْثُرْ على شيء. وكنّا بين الحينِ والحينِ نهتِفُ بأسمِهِ، فلا يُجيبُ علينا أحد.

- «يا لَلسَّعدان البائس! هل أمسى، ايضاً، فريسةَ الذئاب؟»

أجابني فيتاليس:

- «لا... إن الذِئابَ لن تجرُؤَ على دخول مكانٍ

تشتعل فيه النار... لا بُدَّ أن الخوفَ دَفَعَهُ إلى الاختفاء. ولكنْ أين؟ إن مّما يزعجني أن يتعرَّض للبرد، والبردُ وَحْدَهُ يقتله.»

– «إذاً، لنواصِلِ البحثَ عنه!»

فقال فيتاليس:

– «لننتظِرْ طلوعَ النهار! لأن الليل يُعمينا عنه.»

وجلس فيتاليس حول النار، مُحيطاً رأسَهُ الأشيَبَ بيديه. ولبثْتُ أنا حوله صامتاً، واجماً. وكان بين الحين والحين ينهضُ إلى الباب، ينظرُ إلى السماء، ويُصغي بأذُنَيْه، ثم لا يَلبَثُ أن يعودَ إلى مكانه.

ومضت ثلاثُ ساعات، قبل أن ينجلي الليل...

النجوم أخذت تغيب، والسماء تَبْيَضّ... إنه الفجر! إنه النهار!

وبقدومِ النهارِ اشتدَّ لَذْع البرد، وكان الهواءُ الذي ينسلّ من الباب مثلجاً.

آه! لو وقَعْنا على سعداننا الصغير، هل نجدُهُ حيّاً؟

والآن، كيف نجدُه؟

حمل فيتاليس هِراوَةً غليظةً، وأخذْتُ أنا بمثلها وكان كابي هذه المرَّةَ يتحلّى بشجاعةٍ نادرة فلم يكَدْ يَشْهَدُ

بادرةَ الخروج حتى وثَبَ أمامنا.

وبينما رُحنا نبحثُ عن آثار سعداننا الصغير في الأرض، كان كابي يرفع رأسَهُ، ويلقي نُباحه بفرح. كأنّهُ يوحي إلينا بأن علينا أن نبحث عنه في الأعلى، لا على الأرض.

وفي الواقع رأيْنا أن الثلجَ الذي كان يُحيط بكوخنا، كان مُبَعْثَراً هنا وهناك. حتى انتهى بنا إلى كتلةٍ ثلجيةٍ ضخمةٍ فوق سقفنا.

اتَّبَعْنا الغصنَ المتَّصِلَ بسنديانة ضخمة؛ فإذا بنا نقع على شكل ذي لون قاتم.

هذا هو سعداننا الصغير! كان قابعاً فوق السنديانة؛ قد أرعبه نُباحُ الكلاب، وعُواء الذئاب.

وبدلاً من أن يبقى بالقرب من النار، وَثبَ على سقف الكوخ عند خروجنا منه، وتسلّق أطرافَ السنديانة. حيث وَجَدَ الأمانَ لنفسه. وحين نادَيْناه أصَرَّ على الصَّمْت.

إنَّ البَرْدَ قد جمَّد أطرافَهُ... ونادَيْناهُ مراراً، فلم يستجبْ إلى ندائنا. لم يكن هنالك بُدٌّ من تَسَلُّق الشجرة؛ ولكنَّ تسلُّقها كان محفوفاً بالمخاطر...

ورُحْتُ أتسلّقُ بحذر؛ وهَمَسْتُ في اذن السعدان الصغير ببعض الكلمات؛ فلم ينبسْ بشيء، لكن عَيْنَيْه المتوقّدَتَيْن كانتا شاخِصَتَيْن في عينيَّ.

ووصلت إليه، ومَدَدْتُ يدي للقبض عليه، فإذا هو يقفِزُ مني إلى غصن آخر، فاتّبَعْتُه؛ ولكنْ أينَ وَثَباتي من وَثَباتِهِ؟

لقد كان مجرَّدُ اهتدائنا إليه عملاً باهراً. ولكنْ يجب الآن أن نبحث عن الكلبين المفقودَيْن.

إن النهار يعطينا الفرصة الممكنة للوقوع على آثارهما، والوقوف على ما حلَّ بهما.

لقد كان الثلج لا يزالُ يحفظ، في تلك الحفرة، تاريخَ موتِ الكلبين.

كانت آثارهما ممزوجة بآثار الذئاب التي انقضّت عليهما. حتى لم يبق من آثارهما إلا بقعةٌ من الدم اصطبغ بها الثلج.

والآن، كان علينا أن ندفىء السَّعدان الصغير الذي سرى البردُ في أطرافه. فأحمينا النار، وأدفأنا الغطاء، ولفَفْنا به جسده.

وجلسنا، أنا ومعلّمي، حول النار، دون أن نفوهَ

بشيء، ولبثنا حولها ساكنَيْن، وجِمَيْن، نتأملُ النارَ وهي تشتعل.

– « مسكين زوربينو! مسكينة دولسي التعيسة؛ يا للصديقين البائسين! »

هذه هي الكلمات التي كان يكرِّرها كلٌّ منا، حيناً بلسانِهِ، وحيناً بقلبه. لقد كانا رفيقَيْن لنا، وصديقَيْنا في السَّراء والضراء...

كنت أشعرُ بنفسي أنني كنتُ الجاني عليهما... فلو أنني أحسَنْتُ الحراسة، ولو أنني امتَنَعْتُ عن النوم لما تركا الكوخ ولما أقبلت علينا الذئاب وحاصرتنا في كوخنا.

لقد تمنّيْت لو أن فيتاليس يوبِّخني، بل يضربني. ولكنّه لم يُبْدِ شيئاً. بل لم يَرْفَعْ عينَهُ إليَّ؛ بل لبثَ حولَ النار مُطرقاً برأسه.

ولا شكَّ أنه كان يفكِّر كيفَ نعمَلُ بعد أن فَقَدْنا « زوربينو » و « دولسي » وكيف نُحيْي مهرجاناتِنا بدونهما.

وكان السؤالُ الأخيرُ: كيف نعيشُ بعد اليوم؟

١٣ . السيد السعدان

تلك الغابةُ التي كانت مظلمةً، قبل اليوم، أصبحتِ

الآنَ بيضاء، ساطعةٌ بالضياء.

كان فيتاليس، بين الحين والحين، يُمرِّرُ يَدَهُ على غطاء السيد «السعدان» لتحملَ اليه الدِّفءَ والحرارة، ولكنّ ذلك كُلَّهُ كان عديمَ الجدوى.

إن السيد السعدان لا يَدْفأ؛ وحين ملتُ عليه رأيته يرتعدُ من البرد.

قال فيتاليس:

- «يجب أن نرحلَ إلى قريةٍ ما. وإلاّ مات السيّد السعدان هنا. وكم يكون حظنا سعيداً، إذا لم يمت في الطريق. لنرحل!»

ولفَّ السَّعدانَ الصغيرَ بدثارٍ من صوف... ووضعَهُ داخلَ صداره. وبدأنا الرحيل.

وبعد ساعة، وصلنا إلى القرية؛ ودخلْنا إلى فندق. وبخلاف العادة اختار فيتاليس غرفةً جيِّدةً، دافئة.

قال لي فيتاليس:

- «نمْ!»

أنا أنام؟ وأنّى لي أن أنام. ولكنّي أطَعْتُهُ.

وسألني:

- «هل تَشْعُرُ بالدِّفء؟»

- «أكاد أحترق.»

- «هذا ما أبغيه. خُذِ السعدان الصغير، وضُمَّهُ إلى صدرك!»

رَكَضَ السعدانُ الصَغيرُ إليَّ، والتصَقَ بصدري، وكانت عليه وَقْدَةُ الحُمَّى. وناوله فيتاليس نبيذاً ساخناً، محلّىً بالسكّر، ولكنّ السعدانَ رَنا إليه، دون أن يُقْبلَ عليه... وهو الذي كان مُولعاً بهذا الشراب.

عند ذلك قال لي فيتاليس:

- «إذاً، إشربْهُ أنت! أنا سأستدعي الطبيب.»

ولقد كنا نائمَيْنْ معاً، حين دَخَلَ علينا الطبيب.

وكنتُ شربتُ الشرابَ الدافىء، فالتهبَ جسدي، وتوهَّج خدَّايَ احمراراً.

طرحَ الطبيبُ يَدَهُ على جبيني، ونظر إلى فيتاليس بعينٍ حزينة. وقال:

- «إنّ هذا الغلامُ مريضٌ جداً. وعليه حُمّى مرتفعة.»

فأجبتُهُ:

«ولكني لستُ أنا المريض، أيُّها الطبيب!. إن المريضَ هو هـذا السعدان. أما أنا فلست أكثر من شخص يشعُرُ بالدفء.»

وقال الطبيب:

- «كيف يكونُ ذلك؟ هل دَعوتَني. أيُّها السيد. لمعاينة سعدان؟»

وحين شاهَدَ معلّمي نَزْوةَ الغضب في نفس الطبيب، اقترَبَ منه. وشرَحَ له ما أَصابنا من فجائعَ في الطريق. فكان لكلامِهِ وقعٌ مؤثّرٌ في نفس الطبيب؛ فأقبَلَ على السَّعدان. يفحصه. ويبدي العناية به.

- «يا لَلبائس المسكين!»

كان يَسْعُلُ بشدّة؛ ولكنه تركني أُنفّذ وصايا الطبيب فيه. ناظراً إليَّ برقة. وكأنّهُ يشكُرُني على عطفي.

وبعد أيام . طلبَ صاحبُ الفندق أَجرَهُ منا...

ولكنْ. أنّى لنا أن نقومَ بمهرجاننا دونَ كلابنا؟ وهل يكفي «كابي» وَحْدَهُ. لهذا العمل؟ وهذا سَعْدانُنا مريض طريحُ الفراش.

ومع ذلك. لا بُدَّ أن نعمل ونَنْجح!

وأعدَّ فيتاليس على قَدْرِ المستطاع. صالةَ عرض.

بالقرب من الفنْدق. وأنفق بقيّةَ دراهِمِه في تأمين بعض المصابيح الصغيرة. وكتب. بأحرفٍ غليظة. على قطع من الأوراق:

«الكلبُ الأكثر ذكاءً في العالم. والمغنّي العجيب الوحيد... تعالَوْا أيُّها السادةُ والسيّدات. لمشاهدتها في هذا المساء.»

إنْ هذه الكلمات الحلوةَ. الخلاّبة. دفَعتْ إلينا بجمهور كبير من المتفرجين؛ ولكنَ الصالةَ. لم تمتلىء.

وقرّرَ المعلّم أن يبدأ. بالرغم من هذا كله.

غَنّيْتُ قطعتَيْن صغيرتين... ولكنْ. ويا لَلْأسف. لم يَسْتَعْذِبْهُما الجمهور. بينما كان «كابي» مُوَفّقاً أكثر منّي في استهواء الجمهور.

لقـد كـان المتفرّجونَ يُبْدون سرورَهُمْ. ويخبطونَ الأرضَ بأرجلهم. ويصفّقون بأيديهم إعجاباً.

وما كان أجملَ «كابي» وقد تناوَلَ صِيْنيّةً صغيرةً. وأخَذَ يدورُ بها أطراف الصالةِ. حاملاً تلك الصِّينيّةَ بفمِهِ ليَطْرَحَ عليها الناسُ بعضَ الدراهم.

ولكن ما جَمَعُه كلّه لم يكن كافياً لوفاء أجر الفندق.

وحين ألقى فيتاليس نظرَهُ على المبلغ الضئيل الذي

رجناه، هتف بالجمهور:

- « والآن، سأغنّي أنا لكم بعضَ ألحاني... وسيعاوِدُ « كابي » الطواف بينكم. وعلى الأشخاص الذين لم يَهْتَدُوا إلى جيوبهم، أن يَجدُوها هذه المرة. »

وأشهَدُ أني ما سمعتُ فيتاليس يُغنّي، كما غنّى ذلك المساء. وما كنتُ أعرف الموسيقى معرفة دقيقة، لأحكم على فنِّه.

وكلُّ ما أستطيعُ قوله هو أنّهُ حرّكَ قَلْبي تلكَ الليلةَ بما لم أشعُرْ به من قبلُ. فرُحْتُ أبكي!

في الصفِّ الأول، كانت امرأةٌ صبية، جميلة، حَسَنَةُ الرداء، رائعةُ الحسن، تصفّق بكل ما تمْلكُ من قوة.

وفي الجولة الثانية، التي قام بها « كابي » لم تُقَدِّمْ هذه المرأةُ شيئاً. ولكنّها أشارت إليَّ، فاقتربتُ منها. قالت لي:

- « أريد أن أُحدِّث معلمك. »

وانطلقتُ أبحثُ عن معلّمي، متعجّباً. وأنبأتُهُ:

- « ولكنْ ماذا تريدُ مني هذه السيدة؟ »

- « تريدُ التحدُّث معك. »

- « لا. ليس عندي ما أقولُهُ لها! »

- « إنها لم تُعْطِ « كابي » شيئاً. رُبَّما تَوَدُّ أن تُعْطِيَ الآن. »

- « إذاً، على كابي أن يذهَبَ إليها، لا أنا. »

ولكنْ، بعد تفكيرٍ. تقدَّمَ نحوها وهو يسوق « كابي » معه!

وبادَرَتْهُ السيدة:

- « سامِحْني على إزعاجي لك! إني أرَدْتُ أن أُبدي إعجابي بلحنك الرائع. »

فشَكَرَها فيتاليس، دون أن يُبْدِيَ كلمة.

قالت السيدة:

- « إنني أحبُّ الموسيقى. ويَسُرُّني القولُ إنني سعيدةٌ جداً بالاستماع إلى فنانٍ مثلكَ. »

معلّمي فنّان؟ هل هو فنّانٌ معلّمي هذا؟ هذا المعلّم الذي كان يطوف بحيواناته. ويُغنّي في الشوارع؟

أجاب فيتاليس:

- « إنّ رجلاً كهلاً مِثْلي ليس بفنّان. ولكنّكِ تَعْجَبين كيف يغني رفيقُ الكلاب بهذه الطريقة. »

- « ولكنّي معجبةٌ جداً. ولا سيّما. حين سمعتُ

صوتَكَ يُؤدّي هذه الألحانَ بهذه الطريقة الرائعة... إنه يخيَّل إليَّ أنني أعرفك.»

- «الأمرُ بسيطٌ جداً. لم أكُنْ في حياتي السابقة، ما أنا عليه اليوم. لقد كنت في صَدْر شبابي أعملُ في خدمةِ مغنٍّ كبير. ومن ذلك الحين وأنا أتابعُ أغانيَهُ وأردِّدُها. هذا كلُّ شيء.»

لكن السيدةَ لم تَرُدَّ بشيء... وإنما راحَتْ تنظُرُ إلى فيتالبس الذي كان مُرْهَقاً جداً.

ثم إنها ودَّعَتْهُ قائلةً:

- «إلى اللقاء أيُّها السيد!»

وشدَّدَتْ على حروف كلمة «السيد».

- «إلى اللقاء! تقبَّلْ مَزيدَ شكري على هذه الدقائق السعيدةِ التي نَعِمْتُ بها معك.»

ثم انحنَتْ على «كابي» وألْقَتْ في الصحن قطعةً ذهبية.

ورَحلَتْ!

وتوقّعْتُ أن يرافقها فيتاليس إلى خارج الباب. ولكنه راح يتمتم بينه وبين نفسه. باللغة الإيطالية.

وقلتُ له:

- «ألا ترى؟ لقد منحت «كابي» قطعة ذهبية!!»

أجابني:

- «أجل؛ قطعةً ذهبية. هذا صحيح. يا لَلسَّعدان المسكين! إنني من أجله غَنّيْتُ هذه الليلة... هَلُمَّ معي بسرعةٍ لمشاهدته... كأني قد نسيتُه.»

وكانتِ النارُ لا تزالُ تشتعلُ في الغرفة. وهو متدثِّرٌ بالغطاء حتى رأسِهِ، ولكنَّ أطرافه كانت لا تزال باردة.

وانحنى فيتاليس قريباً مني، وراح يُمْعِنُ النظرَ في الحيوان الصغير.

- «واأسفاه! لقد مات، هذا ما كان ينبغي أن يكون. ألا ترى يا ريمي؟ لم يكن من حقي أن أفصِلَكَ عن أمك. إنَّ الأقدار عاقبتني على عملي. بالأمس، فقَدْتُ زوربينو، ودولسي. واليوم فَقَدْتُ السعدانَ الصغير. ولكن... لم نصل بعد إلى النهاية.»

١٤. فراق أخير...

كُنّا لا نزال بعيدَيْن عن باريس...

ساعات سيرنا الطويلة كانت حزينة.

لا يزال البرد على أشده.

كنا نتقدم، دون أن نتكلم. وهذا الجوّ كان يضغط على قلبي.

ورويداً رويداً كنّا نقتربُ من باريس.

لقد سمعتُ الكثيرَ عن هذه المدينةِ الكبيرة، الرائعة. وكنت أظن أنها جميلةٌ من جميع أطرافها. وذات بيوت فخمة، يرتدي أصحابها أجمل الثياب ويتحلَّوْن بالذهب في كل مكان.

وفجأةً. وقف فيتاليس في مُنْحَنَى الطريق. وقال لي:

- « أنظرْ يا ريمي! هذه هي باريس! »

وأمامي... أبصرْتُ بيوتاً سوداءَ اللون، قذِرةً، تترامَى على مدىً بعيد، تحت سماءٍ رمادية، دكناء.

كنت أفتحُ عينيَّ لأعرفَ نفسي وسَطَ هذه السُقوف المتشابهة، والأبراج المتعالية، والقباب الرفيعة، التي كانَتْ تتَوارى تحتَ الضباب، وبين الدُخان.

وكرَّرَ فيتاليس:

- « هذه هي باريس! »

- « بدون شك. »

وفيما كان فيتاليس يقول « هذه هي باريس » لمحتُ

شُعاعاً من النور، يَهْوي من السماء، سريعاً كالبرق، ساطعاً كالذهب.

عند ذلك، قرَّرت أنني لم أكن مخدوعاً؛ لقد وَجَدْتُ أشجاراً ذهبية.

وأكمل فيتاليس:

- « في باريس سينفصلُ أحدُنا عن الآخر. »

أَرْخَيْتُ عينيَّ نحوه. ورَنَا هو إلي بعينيه. وكانت صُفرةُ وجهي ورعشة شفتيَّ تَرْويان له ما أُحسُّ به.

- « لماذا ننفصل؟ »

- « يا لَلْبائس الصغير! »

- « كم أنت طيّبُ القلب! »

- « بل أنت ذو القلب الطيِّب يا بُنيَّ! إنكَ صبيٌّ شجاع... هنالك لحظات في الحياة يُفْرَضُ علينا فيها أن نعرفَ هذه الأشياء. حين يكون كلُّ شيء حسناً، تَتْبَعُ طريقَكَ دون أن تفكرَ في الذين يرافقونَكَ، وحين يسوء كلُّ شيء وتشعُرُ بأنك على طريقٍ سيِّء، ولا سيّما في عُمر الكهولة، حيث لا يكون لك أملٌ في المستقبل؛ فإنك تحتاجُ إلى أن تتكِّىء على سواعدِ الذين يحيطونَ بك... وما أشدَّ سعادتك بهم وهم حَوْلَك!... لقد اتكأتُ عليكَ... لا

تعجبْ من قَوْلي! لأنني أقولُ الحقيقةَ. إنني أشعرُ الآن بأنني مستريح. لأنني أيضاً لي متاعي...»

ثم استطرد قائلاً:

- «إن المصيبةَ تحملُنا على الانفصال في الساعة التي كان ينبغي لنا فيها أن نتقارب.»

وقلت له، وقد أذهلتني كلماتُه:

- «أتريد أن تهجرني في باريس؟»

- «لا، لا أريد أن أهجرك. ولكن ماذا تَصْنَعُ في باريس؟ أيها البائس الصغير! فيوم أبدت تلك السيدة النبيلة رغبتها في العناية بك كولد من أولادها عارضتُ ذلك، ولكن واأسفاه، أرى الظروفَ كلّها تعمل ضدي.

والآن أرى اني عاجزٌ عن عمل أيِّ شيء من أجلك. ولذلك أُفكّر في الانفصال عنك. لا انفصالاً أبدياً، وإنما انفصالُ شهور، حتى يتسنّى لنا التغلّب على مصاعب العيش في هذا الفصل السيء.

ماذا تريد أن تعمل هذه الفرقةُ التي لم يبق من أفرادها سوى «كابي»؟

وما إن سمع كابي اسمَهُ، حتى وَثَبَ علينا، رافعاً يَدَهُ إلى أُذُنه، وطرحَ السلامَ العسكري. ثم وضعها على قلبه،

كأنه يوحي إلينا بأننا نستطيع الاعتماد على وفائه لنا.

وتوقّفَ فيتاليس لحظة، ثم قال لي:

- «صحيح انك ولدٌ طيّب القلب ولكن المرءَ لا يحيا بطيب القلب وحده في هذا العالم. يجب، من أجل إسعاد الآخرين الذين يحيطون بنا، أن يكون لدينا شيء آخر. ماذا تريد أن نصنع مع كابي وحده؟ إننا الآن لا نستطيع أن نقيم أي مهرجان.. أليس كذلك؟»

- «هذا صحيح.»

يا لَها من ظروف قاسية تحيط بي! كلّما أعطتني صديقاً، بدّلَتْهُ بآخر.

بعد أُمي الأُولى جاء فيتاليس.

وبعد فيتاليس يأتي آخر.

أهكذا أقضي حياتي كُلَّها على هذا المنوال؟ ألا أجدُ ذلك الشخص الذي يحبني إلى الأبد، ولا يتركني؟

إنني ارتبطت بفيتاليس كأنّهُ أبٌ لي... أنا الذي لم أعرف لي أباً. ولا أُسرةً ما.

دائماً، أطوف وحيداً، شريداً في هذا العالم. تائهاً على منعطفات الطرق، دون أن أستقرَّ في مكان.

وخلال هذه التصوُّرات قال لي فيتاليس:

- « أنظرْ! هذه هي باريس! »

أهذا ممكن؟ أين بيوتها المرمرية؟ أين أهلها اللابسون الثياب الحريرية؟ ما أبشعَ الحقيقةَ والواقع!

أهذه هي باريس التي طالما تمنيتُ أن أراها؟

وأسفاه! إنها هي ذاتُها...حيث قُدِّرَ لي أن أقضيَ الشتاءَ بعيداً عن فيتاليس، وعن كابي

• • •

وبعدَ لحَظاتٍ، أخذتِ الشمسُ تَسْطع. وراحَ نورٌ دافقٌ يَغْمر المدينة.

- « ما أجملَ باريسَ هذه! »

أراد فيتاليس أن يقصدَ جداراً عتيقاً كان يَعْرِفُهُ، حيث يمكننا أن نستريح إلى ظله، ونتَّقي به لذع البرد.

لم يكن معنا ما نَسُدُّ به جوعنا.

كان فيتاليس تَبْدو عليه عَلاماتُ التّعَبِ الشديد، بحيثُ أصبَحَ لا يستطيعُ الكلام. راح يمشي متباطئاً، وهو يتنفّسُ بصعوبة.

كم كنتُ أتمنّى أن أقولَ له: «إنني أحبُّك» ولكنني كنتُ قادراً على النظر إليه دون أن أفوه بكلمة.

وأخيراً، وجدْنا جداراً ضَخْماً، يُحيطُ ببستان. فجمَعْنا قليلاً من العشب والقَشّ، وجعَلْنا منه فِراشاً.

نمتُ، ملتصِقاً بفيتاليس، واحتضَنْتُ كابي بصَدْري.

وحين غلبَ عليَّ النّومُ، أبْصَرْتُ، كأنني وَسْطَ ضبابٍ كثيف، ورأيتُ الأمَّ بربران، ثمَّ السيدةَ ميليجان. وولدها أرتور. وتساءلت: هل يدركُني الموت هناك؟

وفجأةً، وكان النعاسُ يغلبني، خُيِّلَ إليَّ أنني أذهبُ بعيداً، بعيداً جداً.

واستيقظتُ، فإذا بي على سريرٍ وثير. والنارُ تَلْهَثُ في المِدفأة؛ دون أن أعرفَ الغرفة التي كنت فيها، ولا الفتاة التي أقبلت عليَّ باسمةً.

نهضتُ من نومي ذاهلاً، وسألت:

- « وفيتاليس؟ أين هو فيتاليس؟ »

وأوضحت للفتاة أن فيتاليس لم يكن والدي ولكنّهُ معلّمي.

ثم اقتربَ منا رجلٌ يرتدي صدريةً رماديةً، ونظر إليَّ بإمعانٍ، وقصَّ عليَّ ما حصل.. وخلاصة ذلك أن هذا الرجلَ الذي كان بستانياً، خرج من باب بيته، بعد منتصف الليل، لبيع أزهاره في السوق، بعيداً عن هذا

المكان. فرآنا أنا وفيتاليس وكابي نائمين على الأرض.

لم يُرِدْ أن يوقظَنا من نومنا؛ لأنه خشِيَ أن يَقَعَ ما يسيءُ إلينا، فعادَ إلى بيته، وحمل مصباحاً...

ولكنْ، ماذا رأى؟

رأى فيتاليس ميْتاً. وكنت أنا لا أزال أتنفّس. فحملني إلى بيته، وطرحني على سرير أحد أولاده...

وبينما كان الرجلُ يتكلم. كانتِ الفتاة الحسناء. ذاتُ العينينِ الزَّرْقاوَيْن تطيل النظر إلي.

لقد شاهدَتْ متاعبي. وأطلقَتْ عدة صرخات رقيقة لم أفهَمْ منها شيئاً. كانت عيناها تفيضان بالعذوبة. وقد ذكّرتني بالأمّ بربران، والسيدة ميليجان.

يجبُ عليَّ أن أفهمَ هذه الفتاة، وأحبَّها حباً حقيقياً.

وفي اللحظة التي تأهَّبَ فيها الرجُلُ وأولادُه لإعداد المائدة، نَهَضْتُ وأنا لا أستطيعُ التّماسُك، وقصدْتُ غرفة الطعام.

شمَمْتُ رائحة الحساء؛ ولكني كنتُ مُرْهقاً. فانطرحت على مقعد.

سألني الأب:

- « منذ كَمْ تناولتَ الطعام؟»

- « قبلَ أمس.»

نهضتِ الفتاةُ ذاتُ العينين الزرقاوَين، دون أن تسمَعَني، وجاءت بطبق الحساء. وسُرعان ما ابتلعتُ الحساء، بينما كان الأولادُ وأبوهم نفسُهُ يضحكون مني.

ثم سألني الأب:

- « والآن، إلى أين ستمضي؟»

- « إلى حيثُ أمارسُ العَزْف، وأكسبُ قوتَ يومي. ولكني أُريد أن أرى معلّمي فيتاليس. أريد أن أراه، حياً أو ميتاً.»

سألني الرجل:

- « هذا حسن. ولكن كيف تستطيعُ أن تَجُوبَ الطُّرُقَ وحيداً، في هذا الشتاء اللاذع؟ لا. لا. إنك ستعملُ عندنا، وتعيشُ معنا. وهكذا سيكون لك بيت، وأسرة.»

طَرَحْتُ قيثارتي جانباً... وفي اللحظةِ ذاتِها سمعتُ خَرْبشةً على الباب، فركضْتُ أفتحهُ.

كان ذلك هو كابي الذي انطرحَ عليَّ بحنان. سعيداً بلقائي.

نظرتُ إلى البستانيّ، وقلت له:

– «وكابي، ماذا يكونُ مصيرُهُ؟»

فأجابني:

– «لك أن تحتفظَ به.»

كم أسعدَني هذا الجواب! أُسرة، وأولاد، وهذه الحسناء ذاتُ العينَيْنِ الزرقاوَيْنِ، والشعر الأشقر المُسْدَلِ على وجهها، وهذا البيت! لم يَعُدْ ثمةَ بعد اليومِ طُرُقٌ مُتْعِبة، ولا ليالٍ مشرَّدَة. ولا جوعٌ ولا بَرْدٌ لاذع.

ولكني، مع هذا، كنتُ أريدُ أن أرى فيتاليس...

قادني البستاني إلى مخفر الشرطة، وهناك أثقلوا عليَّ بالأسئلة الكثيرة.

وفي النهاية، شرحوا لي أن فيتاليس لم يكن إلا اسماً مستعاراً. أما اسمه الحقيقي فهو «كارلو بالزاني». كان مغنياً مشهوراً، اسمعَتْ ألحانَهُ إيطاليا كلَّها. وذات يومٍ، فَقَدَ صوته، فعزمَ أن يهجُرَ كُلَّ من يعرفُهُ، فتاهَ في أطراف الأرض، يحيا مع كلابِهِ تلك الحياةَ الشقيَّة، متنقِّلاً من بلد إلى بلد.

ذلك هو تفسيرُ كلماتِ تلك المرأةِ المتفرِّجة حين أطلقت على معلِّمي اسم «الفنان». يا لَلْبائس العزيز فيتاليس، يا

لَلْفنانِ العظيم!

وفي الغد، دفنوا جثمان فيتاليس، وكانتِ الحُمَّى تُرْعِشُ جسدي في سريري، وحين فحصني الطبيب ارتأى نقلي إلى المستشفى.

ولكنَّ الوالد البستاني قال:

– «لا، لا. لقد التجأ إلى باب بيتي، ولم يلتجىء إلى باب مستشفى. لذلك ينبغي لنا أن نحتفظ به.»

وراحت الأخت الكبرى، و«ليزا» صديقتي الصغيرة، ذاتُ العينين الزرقاوين، تُعْنَيانِ بي. كان أخَوَاهُما يَقُصَّان عليَّ الكثيرَ من القصص. وكان والدُهُم يَعُوْدُني في مرضي.

وما هيَ إلا أيامٌ قليلةٌ حتى شُفِيتُ من دائي.

وخلال نُزُهاتي الأُولى، في فصل الربيع، كنتُ أنا و«ليزا» نتنزَّه على ضِفاف النهر. كانت ليزا خرساء، ولكنها لم تولَدْ خرساء، بل فاجأها مرضٌ ترك فيها هذه العاهة. على أنَّ فِطْنَتَها كانت كبيرة، وقلبها الصغير أكبر.

وشيئاً فشيئاً، استعَدْتُ قواي التي أنهكها الداء. ورحتُ أُشارِكُ البستانيَّ عَمَلَهُ في رعاية غِراسِه. إنه كان يتولَّى بنفسه الأزهارَ التي كان يبيعُها في السوق. هذه

الأزهار التي كانت في حاجة إلى رعاية، وهي في بيوتها الزجاجية التي تحميها من المطر والرياح والثلج وأشعةِ الشمس.

لأوَّل مرة، أحسَسْتُ بالسعادة تغمُرُني... وفي وسط هذه السعادة، بينما كنا نتنزَّهُ، يومَ أحد، إذا بالغبار يثور، والسماء تُمسي غبراء... إنها العاصفة!..

ركَضْنا مُسْرعينَ إلى البيت؛ وما إن بَلَغْنا منزلَنا حتى وَجَدْنا البيوتَ الزجاجيَّة محطّمة، والأزهارَ قد اقتلَعَتْها الريح، وقِطَعَ الزجاجِ منثورةً هنا وهناك.

وأسفاه! كلُّ المال الذي كنّا ننتظرُ أن نَجْنيَهُ من بيع هذه الأزهار، قد ضاع.

١٥ . ورحيل جديد...

وما هي إلا أيامٌ حتّى شاهدْتُ الرجلَ يركُضُ من مكان إلى مكان... مرَّةً يقابلُ هؤلاء الرجال، ومرة يجتمعُ بالشُّرطة. وما أكثَرَ مَنْ كانوا يَقْرَعون عليه الباب!

ذلك أنّهُ كان قدِ اشترى هذا البيتَ، منذُ عَشْرِ سنينَ، متعهّداً بتسديد ثمنِه، خلالَ خمسة عشر عاماً.

والآن، لم يَبْقَ بإمكانه الوفاءُ بعَهْدِه، لأنه خَسِرَ رأسَ

مالِه بخسارة أزهاره.

قال لنا، ذاتَ مساء:

- «يا أولادي! إنني مُضْطَرٌّ إلى مغادرتكم. ليسَ هذا برغبةٍ مني؛ ولكني لا أستطيعُ الدفع؛ لذلك سَيَحْملونني إلى السجن.»

لقد كان له أُخْتٌ، هي العمة «كاترين» وقد كلّفني أن أكتب إليها رسالة، طلباً لنصائحها.

جاءت العمَّة، وكانت امرأةً طيبة؛ ولكنها غيرُ غنية. وبالرغم من تشديد ليزا وأختِها وإخوَتها عليها بوجوب مصاحبتي لهم، فقد أبَتْ ذلك، واعتذرت بأنها لا تستطيع الإنفاق عليَّ.

كلُّ واحدٍ منهم أصبح في مكان، يأويه قريب من الأقرباء.

قلت لهم:

- «يا أصحابي! إنني أشعُرُ بحبِّكم لي. إنكم تحبونني كأخ لكم. أليس كذلك؟»

فأجاب الكلّ:

- «ذلك حق...»

- « ولكنْ... سأحملُ قيثـارتي، وأُعاوِدُ الرحيـل، متنقِّلاً من طريقٍ إلى طريق، أنا و « كابي »، لكي أكسب لقمة العيش، وتنقُّلي هذا سيقودني دائماً إلى واحد منكم. وهكذا أشاهدُكم جميعاً وأقصُّ على كل واحد منكم أخبار أخيه. »

لقد كانت فكرتي عندهم جميلة، مقبولة.

وفي الصباح، قُبَيْل مغادرتي البيت، اقتربت ليزا مني، وأشارت إليَّ بأن أدنو منها... وقادتني إلى ظلِّ غرسة ورد، وكسرت فرعاً صغيراً منها، يحمل بُرْعُمَيْن، وأعطتني أحدهما.

آه! في ذلك النهار نفسه، أدركتُ أن الكلماتِ التي تخرجُ من الشِّفاه ليس لها قُوَّةُ التعبير التي تنطق به النظرات.

الكلُّ رحلوا... كلٌّ في سبيله وأنا ظَلَلْتُ وحدي. ولكني كنتُ أشعُرُ بالقوَّة أكثر من أيِّ وقت مضى.

كان لي أسرةٌ، وكنتُ أستطيعُ أن أكون نافعاً، أحمل السرورَ إلى كلِّ مَنْ أحبَبْتُهم وأحبُّوني.

فكَّرْتُ في فيتاليس، وفي نَصَائحِهِ، وقلت بيني وبين نفسي:

- « إلى الأمام! »

العالَمُ كلُّهُ كان مفتوحاً أمامي، ولي القُدْرَةُ على أن أتّجهَ نحو الشمال والجنوب، نحو الشرق والغرْب؛ كما أريد.

والشيء الذي كان أكثرَ نفعاً لي، هو خريطة بلادي. ولكني اقتنيتُ هذه الخريطة، ورحتُ أبحثُ عن طريقة تساعدني على الخروج من پاريس.

وعنـد بلوغي أحد الشوارع، وجدتُ ولداً اسمه « ماتيا » قابعاً وحده بالقرب من أحد البيوت، وهو حزين، واجم. لقد عرفتُهُ في الحال لأنه سبق لي أن رأيتُه عند تاجرٍ كان يمتهنُ مهنةَ فيتاليس نفسها.

وسألتُهُ بلهفة:

- « ماذا تصنع هنا يا صاحبي؟ »

أجابني بحزن:

- « ليسَ عندي مالٌ. ومنذُ أمسِ لم أذُقْ طعاماً. ومعلِّمي التاجرُ أوقفه البوليس، لأنه اعتقد بأنه يسيء معاملتي، ومعاملةَ رفاقي معي. والآن أنا لا أدري: ماذا أصنع. وأنت...؟ »

- « أنا؟ إنني أملك مهنةً... أنا مروِّضُ كلاب، ومُغَنٍّ! »

- «لماذا لا تَصْحَبُني معك إلى حيثُ تذهب؟ إنني أملكُ عوداً، وسنشترِكُ معاً في العزف، ونربحُ كثيراً.»

وما أسرَعَ ما قررتُ أن أصحَبَهُ..!

إذاً، نحن الآن ثلاثة: ماتيا، وكابي، وأنا.

كان الوالدُ البستاني قد نَقَدَني قطعة فضية؛ وهي الآن كافية لنشتري بها خبزاً.

وهكذا انطلَقْنَا على الطريق المجهول...

كنتُ أريدُ أن أرى الأمَّ بربران... بل كنتُ أتمنى أن أشتريَ لها بقرةً إذا قدرتُ على ذلك وربحتُ من تجوالي مالاً كثيراً.

إن ماتيا لم يضايقني، كان يعزف على العود، وكنا نربح معاً ما يساعدنا على مواصلة الحياة.

وعلّمْتُهُ أن يُغَنّيَ مثلي...

وبعدما ضَرَبْنا في الأرض أياماً طويلةً، بلَغْنا البلدَ الذي كان يسكُنُ فيه «ألكسي» عند عمِّهِ.

هذا البلدُ لم يكن إلا مدينةً كئيبةً قذِرة تكمُنُ ثَرْوَتُها تحت الأرض، ويعملُ أهلها في استخراج الفحم من المناجم.

وقَدِمَ عمُّ «ألكسي» إلينا، ورحَّبَ بنا، ورافقَنا إلى

بيته... حيث تحيا أسرته الطيبة.

كان الزمنُ يمضي سريعاً... وألكسي يَقُصّ علينا قصّةَ حياته... كان يبدو كثيرَ الاعتزاز بعمله؛ حتى راودَتْني نفسي أن أزورَ معه المنجم.

قال لي:

- «ذلك مستحيل. إنَّ الذين يعملونَ في المنجم، هم الذين يَحِقُّ لهمُ النزولُ إليه. إبْقَ معنا، وسأسعى لإيجاد عمل لك فيه.»

ولكني كنتُ أميلُ إلى متابعةِ طريقي!

إنَّ لي غايةً أخرى تختلِفُ عن العمل في المنجم.

وفي يوم، ودَّعْت ألكسي، وعمَّه...

ومرةً أُخرى، واصلتُ الرحيل.

١٦ . البقرة والطبيب

أرَدْنا أن نشتريَ بقرةً للأُم بربران، لنفاجأها بها.

ما كنتُ لِأَنسى تلك البقرة التي اضطُرَّتْ إلى بيعها، وإخراجها من بيتها.

لم يكُنْ في خاطري إلاَّ أن أذهبَ إليها، وأراها،

وأعانقها، وأُهدِيَها هذه البقرة.

اقد كنتُ مؤمناً بأنَّ ذلك سَيَسُرُّها كثيراً.

ومنذ التحقَ بي رفيقي «ماتيا» رُحْتُ أعلّمه القراءةَ والكتابةَ والحساب، لكنَّ نفسَهُ لم تكن ترتاحُ إلى ذلك.

وأما في الموسيقى، فكان يأتي بالألحان العجيبة، والعَزْف الجميل.

ولكنّهُ بدأ يَطْرَحُ عليَّ أسئلةً شديدةَ الصعوبة.

أكملنـا طريقَنـا... ونحن نعزِفُ الألحان، ونُنْشدُ الأغاني، وكابي يمثِّلُ بعضَ الفصول؛ وبذلك صرْنا نربح، وكان ربحُنا وفيراً.

في مدينة «أوسل» ذكرت لماتيا أن فيتاليس اشترى لي. في هذه المدينة، أول حذاء عرفَتْه قدماي.

وانطلَقْنا، أنا وماتيا، إلى الفندق الذي سبق لي أن نزلتُه مع فيتاليس. وبعد أن حجزنا فيه، ذهبنا إلى الطبيب البيطري...

وقلنا له إننا نريدُ أن نشتريَ بقرة. فذُهِل، وظنّنا نمزح. إذْ ما حاجتُنا إلى بقرة تتنزَّهُ معنا في هذا السفر البعيد.

ولكنني رويتُ له قصة البقرة، وغايتي من ذلك، فطاب

نفساً وقال:

- «حقاً، إنكما صبيّان شجاعان. إرجعا إليَّ صباحَ غدٍ، لأرافقكُما إلى سوق الماشية، وأنتقيَ لكما بقرةً جميلة.»

وسألته:

- «كم ندفع لك؟»

- «لا شيء... إنني لا أتناول شيئاً من أولاد لهم عزيمة الرجال.»

وعنـد المساء، خرجتُ أنـا وماتيـا، ومعنـا آلاتنا الموسيقيةُ، إلى بيت الطبيب، ووقفنا على بابه، نعزفُ بعضَ الألحان. كان جالساً خلفَ نافذته؛ وسريعاً ما عَرَفَنا، وهبَطَ بسرعة، يفتح لنا الباب وقال:

- «أُدْخلا! أُدخلا! يا ولديَّ. لقد جئتُما في ساعة متأخرة.»

- «ولكنا أرَدْنا أن نعزِفَ لك بعضَ ألحاننا، تحيةً لك، لأنك كنتَ معنا رجلاً شهماً.»

- «إن هذا لرائعٌ منكما... والآن، فلنذهَبْ إلى الحديقة. إني أخشى أن تقبضَ عليكما الشرطة، بحجة تعكير الهدوء: لأن إحداثَ الضجيج ممنوعٌ عند غروب الشمس.»

كان للطّبيبِ أولادٌ كثيرون انضمّوا إلينا في الحديقة.

وهكذا مضى المساء عذباً، جميلاً؛ وتناولنا عندَهُ الشّهيَّ من الطعام، واللّذيذَ من الشراب. ثم غرقنا في نوم عميق.

وفي الصباح، أبكَرْنا إلى سوق الماشية حيث شاهدنا سبعَ عشرة بقرة ولم يلبث الطبيبُ أن وصل فاختار لنا بقرةً منها.

كان ثمنها غالياً. ولكنا كنا عازمين على شرائها.

شراء البقرة، والمِقْوَد الذي نقودها به!!!

وبذلك خَلَتْ جيوبُنا من المال... ولكن حُسْن حظِّنا يَسَّرَ لنا أن نكسبَ بعض الدَّراهم، مِمَّن جاء يتفرَّجُ على عَرْضنا، قبل رحيلنا.

وفي غداة اليوم التالي، واصلنا سَيرنا من جديد.

حتى إذا بلَغْنا أقربَ قرية، جلَسْنا نستريحُ قليلاً، فنَزَعْتُ المِقْوَد عن عُنُق البقرة التي راحت ترعى الأعشابَ بنهمٍ، بينما كنا نحن نأكل مما ادَّخرناه ليوم السفر.

وراح «ماتيا» الذي غمره السرور، يعزف أغنيةً جميلةً... جميلة! فإذا بالبقرة التي استَخَفَّها الطَّرَبُ، تَقفِزُ بين الحقول؛ حتى استحال علينا اللّحاقُ بها، والقبضُ على مِقْوَدِها.

ها نحنُ نركض خَلْفَها من هنا إلى هناك. و «كابي» يساعدنا في المطاردة. ودخلْنا القريةَ معاً. والبقرةُ في الطليعة.

وهناك، تمكّنَ بعضُ أفراد القريةِ من الإمساكِ بالبقرة وحَجْزِها. وحين طَلَبْنا بَقَرَتَنا لم يصدّق أحدٌ منهم أنها لنا.

يا لها من بقرة مشؤومة!

دعانا رئيس شرطة القرية، وسألنا:

- «من أيِّ مكانٍ اشتريتُمُوها؟ وبأيَّة دراهم؟ وأين الأوراقُ التي تُثبتُ ذلك؟»

- «أوراق؟ وأيَّةُ أوراق هذه؟»

وساقنا الرئيسُ إلى المخفر... أراد ماتيا أن ينطق بشيء، فأرغمتُه على السكوت، خشيةَ أن تتكرَّرَ مأساةُ فيتاليس، يومَ كلَّفَهُ النطقُ حَبْسَ شهرين.

أوْدَعُونا السِّجنَ؛ فقضَيْنا ليلةً لعينةً وراء جدرانه.

وفي الصباح، فُتِحَ بابُ السجن، وأطلَّ علينا منه رجلٌ أشيب.. إنه رئيس أمنِ القرية.

التفتَ إلينا وقال بلهجةٍ هادئة:

- «لقد أخبروني أنكما سَرَقْتُما هذه البقرة! ماذا

تقولان؟ »

رويتُ عليه قصتنا، وذكَرْتُ له اسمَ الطبيبِ البَيْطَرِيِّ الذي انتقاها لنا بيده. وقَصَصْتُ عليه كيف جَمَعْنا المالَ، بعرقنا وكَدِّنا، لنشتريَ هذه البقرة.

فقال:

– « ما دمتما ذاهبَيْن إلى « ڤارس »، فحدِّثاني عنها. وعند ذلك سأعلَم حقيقةَ أمركما... لقد أعطيتُموني أسماء. ولكني لستُ واثقاً من أن قصَّتكُما حقيقية. من منكما هو ريمي؟ »

– « أنا ريمي، أيها القاضي! »

ورحت أروي له ما مرَّ بي، منذ لقيتُ ماتيا...

كان القاضي يُصغي إليَّ بانتباه شديد. ثم انصرف عنا وقَضَيْنا ليلةً أخرى في السجن.

وفي الصباح عادَ القاضي إلينا، مع صديقنا الطبيبِ الذي ترك منزلَهُ وقَرْيَتَهُ ليعملَ على إخلاء سبيلنا بنفسه.

وتناولَ القاضي ورقة ممهورةً بطابع، وقال لنا:

– « إنكما مخطئان، لقيامكما بهذه الرَّحلات بدون جواز سفر.. وإليكما الآن هذا الجواز! فسيرا حيثُ تشاءان. رافَقَكُما الحظُّ السعيد. »

وأخذنا بَقَرَتَنا، التي سميناها باسم البقرة الأولى « شقراء » وخرجنا من القرية باعتزاز؛ وكان الفلاحونَ ينظرونَ إلينا باسمين.

وحين مَرَرْنا بمَخبز القرية، جاءتني هذه الفكرة، وحدَّثت بها « ماتيا »:

– « أريدُ أن أشتري للأم بربران ما تَصْنَعُ منه فطائر. سنحمل إليها الزُّبدةَ. والدقيق. ومن لبن البقرة. وبعض البيض سنحقِّق هذه الأمنية. »

١٧. العودة إلى القرية

كان المساء يهبطُ رُوَيْداً رُوَيْداً.

إنني أعرفُ البلدَ الذي سَبَقَ لي أن وصَفْتُ معالمَهُ لرفيقي ماتيا.

ها قد أشرَفْنا على موضعٍ قريبٍ من بيت الأمّ بربران.

دخلتُ البيت بهدوء؛ لكنّها لم تكن داخلَ البيت.

سُقْنا البقرةَ إلى الزَّرِيبة... ثم اتّخَذْتُ مَقعدي بالقُرب من المِدفأة؛ أما « ماتيا » فإنه توارَى مع « كابي »؛ خلف السرير.

وبَعْدَ قليلٍ، رأينا الأمَّ بربران تدخلُ إلى المطبخ.

ورأتني بجانب المِدفأة؛ ولكنها لم تعرِفْني. وتساءلت:

- « مَنْ هناك؟ »

فصحت بأعلى صوتي:

- « هذا أنا ريمي... هذا أنا يا أُمي! »

ركضَتْ إليَّ بلهفة، وطوَّقَتْنِي بذراعَيْها ثم تصاعدتْ حركةٌ خافتةٌ من جانب السرير، ذكَّرَتني بأن « ماتيا » لا يزالُ خَلْفَ السرير.

وناديتُهُ، فاقتـ [illegible] منا، وعرَّفتُهُ بالأم بربران.

ثم طلبتُ إليها أن تخرج معنا إلى الحديقة..

خرجنا وهي تقول:

- « حقاً، نستطيع الآن الخروج لترى حديقتك. لأنني حفظتُها على النحو الذي نسَّقتَها به، لكي تراها بعد أن تعود إلينا؛ لأنني كنتُ واثقة من عودتك، على الرغم من كل شيء. »

- « وتلك أزاهير الباقلاء، التي غرستُها، كيف وَجَدْتِها؟ »

- « آه منك! إنك أنت الذي تركتَ لي تلك المفاجأة.

ما اكثر ما تحب صنع المفاجآت! »

والآن، حانت الساعة، وقلتُ:

- « وكيف زريبةُ بقرتنا « شقراء » التي طُرِدَتْ منها كما طُرِدْتُ أنا من البيت؟ »

- « آه! لقد وضعتُ فيها حُزمة الحطب. »

وفي هذه اللحظة، دفعتِ الأمُّ بربران بابَ الحظيرة؛ فأرسلتِ البقرةُ خُواراً، يَدُلُّ على جوعها.

صاحت الأمّ:

- « يـا إلهي! بقرة! بقرة في الزريبة! هل تَخْدَعُني أُذناي؟ »

ورُحْتُ أنا ورفيقي نملأُ المكانَ ضَحِكاً...

ونظَرتْ إلينا وهي حائرة، لا تدري شيئاً من كل ما يجري حولها.

عند ذلك، قلت لها:

- « وهذه مفاجأةٌ أُخرى! تُشْبهُ مفاجأةَ الأزهار. »

فردَّدتِ الأمّ:

- « مفاجأة! كيف؟ مفاجأة؟ »

- « لم أُرِدْ يا أماه أن أعودَ من رحلتي الطويلةِ الى

أمي التي كانت شفيقةً عليَّ، صِفر اليدين. لم أَجِدْ خيراً من أن آتِيَكِ ببقرة اشتريتُها بعرق جبيني.»

عانقتني الأمّ بشدة، والدمع في عينيها، وهي تردد:

- «يا لك من ولدٍ بارّ! يا لك من صبيّ عزيز!»

واقتربتْ من البقرة، تلمسُها، وتفحصُها...

- «يا لها من بقرةٍ جميلة!»

ودخلنا البيتَ، نستريحُ من تعبنا. وخَطَرَ لي أن أسألَها:

- «ولكنْ، أين السيد بربران؟»

- «بربران؟ إنه ليس هنا، يا ريمي! لقد سافر إلى باريس!... دَعْني الآن أُهيىء الفطائر... وبعد ذلكَ أشرح لك ما كان.»

وبعد تناولنا الطعام، حَدَّثَتني قائلةً:

- «لقد جاءنا رجلٌ غريب وطلبَ مقابلةَ الأب بربران؛ يبدو أن أسرتك تبحث عنك. فأَصغِ إليَّ جيداً؛ وكان مظهرُ هذا الرجل يَدُل على أنه غنيٌّ جداً. واختلى مع بربران؛ على أني لم أستطِعْ أن استمع الى كلِّ ما قيل في تلك الخَلْوة. ولكنَّ زوجي صارَحَني على عَجَلٍ بأنَّ هذا

الرجلَ يبحثُ بجدٍّ عنك؛ ليعيدَكَ إلى أُسْرتك. لذلك، عليكَ يا ريمي أن تجد بربران بسرعة... وهو يقول لكَ ما يجبُ أن تصنع.»

وأَعطتْني على الفور عنوانَ الفندقِ الذي يَنزل فيه بربران.

وفي اليوم التالي كنت في طريقي إلى باريس.

ولا أنسى أني اغتنمتُ فرصة توقُّفنا في مدينة «دريزي» على القناة، حيث زرت «ليزا» واشتريتُ لها دُمْيَة. ولا أنسى بَسْمتَها العذبةَ التي قابلتني بها.

لم تكن لي رغبةٌ في مغادرتها. ولكنْ... كان هنالك حافز يَدْعوني الى البحث عن بربران؛ ثم البحثِ، بواسطتِهِ عن أُسرتي!

وأخيراً بَلَغْنا مدينةَ باريس، بعد مَسِيرةِ أيامٍ متواصلة، بدون متاعب، هذه المرة.

نزلْنا في الفندق؛ وسألْنا عن بربران...

- «بربران؟ لقد مات منذ أيام.»

- «بربران مات... هلْ مات بربران؟ إنَّ آخر خيطٍ من رجائي في هذا العالم قد انقطع الآن...»

حقاً، لم تكنْ بي رغبةٌ بلقاء بربران، ولا النظر إليه.. ولكنه كان يملك عنوان أُسرتي.

ما العملُ الآن؟ وما هي الوسيلة؟

كتبتُ للسيدة بربران، وعزَّيْتُها بفقدِ زوجها، ولَبِثْتُ أنتظرُ الجواب...

كنتُ أنا و «ماتيا» ومعنا «كابي» نربح قليلاً من الدراهم التي تساعدنا على الحياة الضيقة. كان «ماتيا» ساحرَ العزْف. فما إنْ يعزفُ على عُودِهِ حتى يتحلّق حولَهُ جمعٌ غفير. وكثيراً ما سمعتُهم يقولون: «يا لهُ من ولدٍ رائع! ما أجملَ عزْفَه! حقّاً إنه لفنّان!»

وكنتُ أُردِّد بيني وبين نفسي: «إن ماتيا سيغدو يوماً ما فناناً كبيراً.» لقد كنتُ مَزْهُوّاً به، وكان هو يُحِبُّني، وكان يحدِّثني، أحياناً، عن أختٍ صغيرةٍ له في إيطاليا. وإنّهُ ليخيَّلُ إليَّ أنني أعرفُها الآن.

وجاء جوابُ الأم بربران سريعاً. وكان قد عَلِمَتْ بنبأ موتِ زوجها بعد سفرنا. وقد تلقّت منه رسالةً خطّها بيده، حين شعر باقتراب أجلِهِ. وهذا ما جاء في رسالته إليها:

«إنني الآن في المستشفى، أعاني مرضاً شديداً. إنني أشعر بأنْ لا شفاء لي من علّتي.

عليكِ أن تكتبي إلى «غريت» في شارع «غرين» بلندن. إنه هو الرجلِ المكلَّفُ بالبحث عن ريمي. لقد قَبضَ أجْرَهُ سلفاً من أسرة ريمي. ولا تَنسَيْ أن تطلبي تعويضاً عما أنفقناه على تربية ريمي وتنشئتِهِ.. لأننا نحنُ الذين بأيدينا أمرُ ريمي.»

وذيّلت الأمُّ بربران رسالتها إليَّ بهذه الكلمة:

«والآن، انطلقْ، يا ريمي، سريعاً إلى لندن... لأنني متأكدةٌ أنك ستغدو سعيداً، بمقدار سعادتي حين تبلغُ قَصْدَكَ، وتجدُ أُسرتَك.»

١٨ . رحلة إلى إنكلترة

ولِحُسْن حظنا، كان «ماتيا» يعرفُ بعضَ التعابير الانجليزية، وكان ما تبقّى معنا من المال يكفي لحملِنا من پاريس إلى لندن.

وفي اليوم الذي تلقّيْنا فيه رسالةَ الأُم بربران، غادَرْنا المدينةَ، أنا، وماتيا، وكابي! سَعْياً وراء السيد «غريت».

كان سَفَرُنا رائعاً، مُوفّقاً.

وعندَ الصباح، وجَدْنا أنفسَنا على ضفاف نهر «التايمس».

اقتَرَبَ « ماتيا » من رجل ضخم، وسأله عن الطريق الذي يؤدي الى شارع « غرين ».

فأجاب الرجل الضخم: « إن هذا لسهل جداً. إتّبعْ مجرى النهر... وبعد قليل تَصِلُ إلى الشارع بدون عائق. »

رَبطْتُ عُنُقَ كابي بحبلٍ غليظٍ وانطَلَقْنا... وبين الحين والحين كان ماتيا يتساءل: « ألا يزالُ هذا الشارعُ بعيداً عنا؟ »

لقد توهّمنا أننا ضِعنا في الطريق، لأن الطريقَ – كما تخيَّلْنا – كان يمتدُّ الى ما لا نهاية.

ثم رُحْنا نبحثُ عن اسم « غريت » وَنَتَفَحّصَ البيوتَ من حولنا.

وأخيراً وقَعْنا عليه بدون جهد.

وفي اللحظة التي همَّ فيها « ماتيا » بقرع الباب، استوقَفْتُهُ، فالتفت إليَّ متسائلاً:

– « ماذا بك؟ إنك شاحبُ اللون جدا. »

فأَجبتُهُ:

– « انتظِرْ قليلاً، يا ماتيا، حتى أستعيدَ شجاعتي، وثقتي بنفسي. »

وبعد لحظاتٍ، قَرَعَ البابَ، ودَخَلْنا.

كنتُ أَرتعشُ من الخوف، وكانتْ عينايَ لا تستقرّانِ على أُولئك الأشخاص الذين كانوا يعملون في المكتب.

تقدَّمَ ماتيا، وطلب أن يقابل السيد « غريت » بناءً على طلب السيد بربران. وحدَّق فيه الرجل المسؤول، وكرَّر:

– « بناء على طلب السيد بربران؟ »

قال ماتيا:

– « نعم. »

ويبدو أن اسمَ « بربران » أثار اهتمام الأشخاص الذين سمعوه. فنهضَ واحدٌ منهم وَقَرَعَ بابَ المكتب المجاور، ولبث، فيه، عِدّةَ دقائق، ثم عاد، وقال:

– « أُدخلا! إنّهُ بانتظاركما. »

ودخَلْنا... كان هناك رجلٌ، حَسَنُ البزَّة، لم تَتَوقّف أناملُهُ عن الكتابة.

قال ماتيا:

– « لقد جئنا الى هُنا، نبحث عن أسرة ريمي. »

– « ومَنْ أنتما؟ مَنْ هو الولد الذي ربّاه بربران؟ »

قلت:

- «إنه أنا...»

وتقدَّمْتُ منه قليلاً.

- «وأين بربران؟»

- «إنّهُ مات، أيها السيد!»

- «ولكنْ؛ كيفَ أتيْتُما هذا المكانَ؟ ومن دَلّكما علَيْه؟»

رَوَيْتُ له قصَّتي؛ وكان هو يكتبُ على قُصاصة ورق، بينما كنت أنا أروي له القصة.

وخطَرَ لي أن أسألَهُ:

- «وأسرتي، هل تسكن انجلترا؟»

- «بالتأكيد، وفي هذه الساعة أيضاً.»

- «إذاً، أُريد أن أراها.»

- «ستكون معها عاجلاً... وسيحملونك اليها الآن.»

- «وسؤال آخر، أيها السيد؟ هل لي أَب؟»

- «لك أَب، وأمّ، وإخوة، وأخوات.»

- «آه... شيء رائع، يا سيدي!»

أحسَسْتُ بشعورٍ من الغبطة يغمرُ نفسي؛ وكِدْتُ أن أجهَشَ في البكاء. ولكنَّ البابَ فُتح، ودخلَ موظّف... وراح يتحدَّث باللغة الانجليزية؛ فقلت في نفسي إنه يُوْضح له الى أين يقودنا.

وخلال توديعنا له، قال:

- «لقد نسيت، إن اسمَكَ هو «دريسكولي». ذلك هو اسمُ أبيك.»

ورافَقَنا الموظف المكلّف برافقتنا؛ ودعانا الى مَرْكبة انطلقت بنا على التّوِّ في شوارع ضيقة، قذِرة...

كيف يسكنُ أهلي بين هذه البيوت الحقيرة، وهم - كما قيل لي - أغنياء؟

ووقفت المَرْكبة.

وأشار إلينا المرافق بالنزول.

وهنا دخَلْنا الى بيت قبيح، قذِر، وارتقينا سُلّماً مظلماً.

وقَرَع المرافقُ الباب...

وكنتُ سعيداً على أية حال. ولكن، في الوقتِ نفسِه، كان يستبدُّ بي خوفٌ عميقٌ يُمسكُ بقلبي، وخِناقي.

أنا لا أذكرُ مُطلقاً ذلك الشخصَ الذي فتح لنا الباب.

١٩ . أسرة ريمي

الآن، وجدنا أنفسنا في غرفة يُنيرُها مصباحٌ ضئيل، وتدفِّئها نارُ الفحم. أمامَ هذه النار، كان رَجُلٌ ذو لحية بيضاء، يجلسُ على كرسي منخفض. وفي الناحية الأُخرى جلسَ رجل وامرأة متواجهَيْن؛ دون أن ينبس أحدُهما بشيء.

أما الرجل فهو في الأربعين من عمره، أو يناهزها، وأما المرأة فتبدو أكثر فتوة منه، وأنضر شباباً.

وفي زاوية أُخرى كان أربعةُ أولاد يلعبون ويعبثون دون أن يحدثوا صخباً.

الكلُّ كانوا شُقراً كأمهم؛ وكان شُقرتُهم ساطعة.

لمحتُ ذلكَ كلَّه بسرعة. وما كان أحدٌ منهم قد تفوَّه بكلمة.

اقترب المرافقُ من الرجل؛ ووَسْوَسَ له بعض الكلمات بالانجليزية. ولكني لم أفهم مما قال شيئاً.

وسأل الرجل:

– « من هو ريمي؟ »

فأجبته:

– « أنا. »

فقال الرجل:

– « حسن. إنهَضْ وعانق أباك يا غلام! »

حقاً، لقد ارتقبت كثيراً ذلك اليومَ الذي يقع فيه ناظري على أبي، معتقداً بأنّه سيكون مَطلع سعادتي وهنائي.

ولكني، في هذه اللحظة، شعرتُ بأن قلبي يخفُقُ في الفراغ. ومع ذلك، تقدمت، وعانقْتُ ذلك الرجل.

ثم قال لي:

– « عانِقْ أمَّك أيضاً! »

وتقدَّمـتُ نحو أمي وعانقْتُهـا، ثم عانقْتُ إخوتي وأخَواتي، ولكن لا هؤلاء ولا أُولئك كلّموني بشيء؛ بل تركوني أُعانقُهُمْ دون أن يبادلوني العناق.

ثم قال لي أبي:

– « صافحْ يَدَ جَدِّك هذا... ولكنْ برفق. إنه رجل عجوز. »

ودَنَوْتُ من العجوز، وأخذْتُ بيده، فنظرَ إليَّ، وبصقَ على الأرض.

أحسستُ بكآبة عميقة تَغْمُرُ صدري، وقُلْتُ في نفسي: لو أن أهلي كانوا أغنياء، هل أكون كئيباً؟

إن هذه الفكرة أزعجتني كثيراً...

ثم نظرتُ إلى أمي، وعاودت عناقَها بشدَّة، لكنَّها لم تبادلني شيئاً.

وقال أبي:

– «وهذا الغلام من عساه يكون؟»

فأَجبته:

– «هو ماتيا، صديقي.»

وقصصتُ على أبي كيف عشنا معاً، تلك الأيامَ العسيرة. وعمِلْنا معاً؛ وقلت له إننا صديقان وفيّان.

وهنا انتصب أبي في جلسته وقال بصرامة:

– «إن عليك أن تُدرك ما تحمَّلْنا من مشاقَّ، طيلةَ ثلاثةَ عَشَرَ عاماً، في سبيل البحث عن بربران. والآن أقصّ عليك ذلك:

كنتَ أنتَ ولدنا البكر. حين تَزَوَّجْتُ أمَّك كانت هنالك فتاةٌ نضيرة الشباب، يراودها الأمل بأن تكون هي زوجة لي.

وحين وُلِدْتَ، سَرَقَتْكَ، وَحَمَلَتْكَ إلى باريس، لتَخْلُقَ لنا المتاعب. ورُحْنا نبحثُ عنك عَبَثاً، ولكنْ دونَ أن نَطْلُبَكَ في باريس؛ لأنه لم يأتِ في خاطرنا أنها قادَتْك الى مثل هذا المكان البعيد.

ومنذ ثلاثةِ أعوام، أصاب هذه الفتاةَ مرضٌ أنذرَها بالموت، فكتبتْ إلينا قِصَّةَ الجريمة؛ تَرْوي فيها أنّها طرحتك على باب بيت، في قريةٍ فرنسية.

وإذْ ذاك، بدأتُ أَبحثُ عنك بواسطة رجَال الأمن الذين يَتَوَلَّوْنَ أعمالي؛ ومنهم السيد «غريت». لأنّنا كنّا نسكنُ لندن في الشتاء، ونسلُكُ الطرقَ الجميلة، خلال فصل الربيع. لكن السيد «غريت» لم يُعْطِ عنواننا للسيد بربران.

والآن؛ ها قد وَجَدْتنا؛ وسوف تحتلُّ مكانَكَ في الأُسرة، أما صديقك وكلبك فيمكنهما البقاء معنا!»

إن الثيابَ الصغيرةَ الجميلةَ التي كنتُ أرتديها، يومَ عَثَرَ عليَّ بربران، كانت خادعةً، زائفة.

وأهلي، إذاً، لم يكونوا أغنياء.

والرجلُ الذي زار بربران كان كاذباً أيضاً!

ولكن. الآن، أُصبح لي أسرة، وينبغي لي أن أُحبَّها.

إن الغنى، بعدَ كل شيء، ليس له قيمة، حين يَسُوْدُ الحبّ

ولكني وَجَدْتُ أن أمي وَجَدّي وإخوَتي وأخواتي ليس لهم أيّةُ عاطفةٍ دافئةٍ نحوي.

انتهى الغداء، وكنتُ أحسب أننا سنقضي ساعةً ما، حولَ النار، نتبادل الأحاديث.

لقد خابَ ظني. فإن أبي قال لي إنّهُ ينتظر بعضَ الأصدقاء، وإن علينا أن ننام.

وقادنا، أنا وماتيا، الى غرفة مظلمة، دخلناها من بابٍ آخر. وهناك وَجَدْنا مَرْكبتين ولقد فتحَ باب احداهما، ودلّنا على سريرين ينهض أحدُهما فوق الآخر.

وقال لنا:

- «هذان السريران لكما... ناما الآن!»

وتركَ لنا مصباحاً ضئيلاً؛ وأغلق علينا بابَ المركبة بإحكام. لقد كنا مُتْعَبَيْن ولكنّنا سُرعانَ ما عُدْنا الى اليَقَظة والأَرَق، بعد نومنا.

لم أَستطعْ أَن أنام. إن خوفاً مَشُوْباً بالكآبة كان يَذُوْدُ عن عينيّ النوم. ولم أَستطعْ أَن أفاتحَ ماتيا بشيء ممّا عراني.

ولكنّي رُحْتُ أفكّر في أصدقائي السابقين، وظلّ النعاس بعيداً عن عينيّ.

وفي وَسَطِ اللّيْل، سمعتُ ضجةً... وفُتحَ البابُ فجأةً؛ وأخَذَ كابي الراقد بجانبي يَنْبح. وَضَعْتُ يدي على فمِهِ لأمنَعُهُ من النباح، وأطللتُ بنظري، من خلال زجاج المركبة؛ فرأيت أبي يدخل، وخلفه رجال يحملون رُزماً مشحونة. ووضع سبَّابَتَهُ على فمه، ليكلمهم بهمس. وأراهم المركبة حيث كنا ننام.

كان بيده مصباح. وكنتُ أرَى ماذا يصنع. لقد أخذ هو ورجالُهُ يفتحون الرزم ثم أَقْبَلَتْ أمي على آثارهم، وهي ترى الى الأشياء التي كانوا يُخرجونها من الصناديق، شيئاً بعد شيء.

ثم راح أبي يقصُّ المواضع التي سُجّلت عليها أسعار الأشياء. ويقذف بها الى أمي التي كانت تتولى مَزْقَها مرة ثانية.

ما كنتُ لأفهم لماذا يأتي هؤلاء البائعون، في مثل هذه الساعةِ من الليل ليبيعوا هذه الحاجاتِ لأبي.

وبعد أن انصرفَ الرجال، رأيت أبي يُزيحُ لوحةً خشبية من ألواح الغرفة، ويَطْرَحُ منها ما حَزَمَتْهُ أمي من البضاعة.

ثم أغلق اللوحة باعتناء، ومضى لسبيله، وتبعَتْهُ أمي على آثاره، تاركةً كلَّ شيء على وضعِهِ الطبيعيّ في بهونا.

الآن فهمت... وأدركتُ لماذا كان الخوف يستبدُّ بي:... لماذا كنت كئيباً.

إن أهلي هم لصوص!

في اليوم التالي، نَهَضْنا من نومنا، ودخلنا المطبخ. أمي جالسة، ورأسُها متكىء على طاولة. دَنَوْتُ منها لأعانقها، فصدَّتْني عنها؛ ولكني أَحسستُ أن الخمرة تفوح منها.

خرجتُ أنا وماتيا، نَتَنَزَّهُ في شوارع لندن، فبلغنا بستاناً صغيراً، لا يسيرُ فيه عابر، وجَلَسْنا.

ولاحظ ماتيا أن في نفسي ميلاً الى البكاء... وسُرعانَ ما بكيت.

وقلت لماتيا:

- «أنت، يجب ألا تبقى هنا. عُدْ الى فرنسة، الى ايطاليا، الى حيث تشاء ولكن لا تَبْقَ معي هنا.»

- «وأنت؟»

- «أنا، لا أستطيعُ أن أُرافقك في سفرك. لقد وَجَدْتُ أُسرتي. خذ بَقِيَّةَ الدراهم، وارْحل!»

- «لا، يا ريمي! إذا كان هنالك واحدٌ يجب عليه أن يرحَلَ فهو أنت.» وهنا انحنى عليَّ يعانقني بحنان.

- «اسمع يا ريمي! إنني متأكدٌ من أن هؤلاء ليسوا بأهلك.»

فسألْتُه:

- «هل شاهَدْتَ ما كان هذه الليلة؟ أجبْني!»

قال:

- «أجل، يا ريمي! إن هؤلاء ما هُمْ إلاّ لصوص.»

- «ولكنهم أهْلي.»

- «إنني أؤكد لك بأنهم ليسوا بأهلك؛ لماذا أنتَ أَسمرُ البَشَرة، بينما اخوتك وأَخواتُك هم شُقْر الألوان؟... وأمك، أيضاً، شقراء. وأبوك شَعْرُه رماديّ؛ ولكن بَشَرَتَهُ صافية جداً. إنك لا تُشْبهُ واحداً منهم. إن شعوراً قوياً في قلبي يوحي إليَّ بأنك لستَ ولداً لهؤلاء. لقد قرَّرْت. سأبقى معك.»

وحين عُدْنا الى المنزل، وجدنا أبي الذي طَرَحَ علينا هذا السؤال:

- «كيف كنتما تكسبان رزقكما في فرنسة؟»

- «كنا نعزِف معاً. وكابي كان يقوم ببعض الأدوار.»

قال أبي:

- «ذلك حسن. مَثِّلا أمامي بَعْضَ هذه المشاهد!»

عَزَفَ ماتيا على عُوْده، وَعَزَفْتُ أنا على قيثارتي، وأدَّى كابي بعض الأدوار. فأبدى أبي اغتباطَهُ بما رأى، وقال:

- «إن هذا الكلبَ يستطيعُ أن يجنيَ ربحاً كثيراً.»

قلت له:

- «أجل، ولكنه لا يعمل إلا مَعَ ماتيا ومعي.»

فأجاب أبي بلهجة حازمة:

- «هنا، أنا الذي آمرُ. غداً، يرافقُني «كابي»، وأنتما تذهبان لتغنِّيا أغانِيَكما، وتأتياني بما تكسبان من دراهم.»

وهكذا، بدأنا حياةً جديدة؛ رُحْتُ أنا وماتيا نجوبُ شوارع لندن المُتْرَفة. كنا نربح كثيراً. وعند المساء كنا نجد كابي سعيداً جداً بلقائنا.

ولكني لم أستطعْ يوماً أن أتلاءمَ في حياتي الجديدة، مَعَ هذه الأسرة. كتبت إلى أمي بربران، أسألُها أن تَصِفَ لي ثيابِيَ الصغيرةَ التي كانت عليَّ، يوم التقطوني على الطريق...

٢٠. ما أضيقَ العيش لولا الأمل...

وبعد أيام، جاءتني رسالة الأم بربران، تشرحُ لي فيها كيف كانت ثيابي يوم التقطوني، وتذكُرُ لي أنَّ هذه الثيابَ ليس عليها اسمٌ لصاحبها، ولا للمخزن الذي خَرَجَتْ منه. وأرفقت الرسالة بقطع صغيرة سُلخت من مختلف أطراف تلك الملابس، ونصحتني بألاّ أحزَنَ لأن أهلي فقراء!

آه! إنها لا تعلمُ لماذا أنا حزينٌ حقّاً!

لم يكنْ من السهلِ أن أطلبَ الى أبي أن يَصِفَ لي الثيابَ التي كانت عليَّ، يوم اختطفوني.

وفي يوم من الأيام حملنا المطرُ الغزير على البقاء في البيت، فرتَّبتُ صورةَ السؤال؛ وطرحتُه عليه. وبدلاً من أن يغضب ويثور، ابتسم وأجابني:

- «كنتُ أحسَبُ أن ألقاك بسهولة. لأنَّ كلَّ قطعةٍ من ثيابك كانت تحملُ اسمك. لكن تلك الفتاة التي اختطفَتْكَ منا، سَلَخَتْ كل قطعة منها عليها اسمك. وبذلك اعتقدَتْ أننا نفقدك إلى الأبد.»

ثم أخذ يشرح لي كيف كانت ثيابي...

وكان كلُّ ما حدَّثني به مطابقاً لما ذكرَتْهُ لي الأمُّ

بربران في رسالتها. فكيف أشكّ بعد ذلك في أنه هو أبي؟

وفي المساء، وكنا نائمين في مَرْكبتنا حدثت ماتيا بما رواه لي أبي. ولكن ماتيا فاجأني بقوله:

- «إنك لستَ بولد هذا الرجل. ولكنّك الولد الذي سَرَقَهُ هو في يوم من الأيام.»

ولم أَستطع أن أُصدق ماتيا في زعمه.

فإذا لم يكن آل «دريسكول» هم أهلي، فلماذا كانوا يبحثون عني؟ ولماذا أعطَوْا الدراهمَ لرجالِ الأمن، لكي يعثروا عليّ؟

كلُّ هذه الأسئلة اختلطت في رأسي..

وفي كل يوم يمرّ، كان يجبُ علينا، ونحن نضحك، أن نَتْبَعَ كابي في أدواره، ونغنّي، ونعزِف!

وكان أبهج أيامنا يوم الأحد. كلُّ شخص، في هذا النهار، من سكان لندن، يستريح ولا يعملُ شيئاً.

وبذلك، كنتُ أستطيعُ، أنا وماتيا، أن نخرُجَ إلى النزهة؛ حيثُ كان يطيبُ لي أن أفكر في كآبتي.

وكنا نقود كابي بِمقْوَدٍ مشدودٍ حول عُنُقِهِ.

وفي مثل هذا اليوم، طلب إليَّ أبي ألاّ أبرحَ البيت.

وأَرْسَلَ رفيقي وحده إلى النزهة.

كنتُ أنا وأبي معاً، حين قُرِعَ الباب. وفتح أبي البابَ؛ فإذا برجل غريب يختلف زيّاً ووجهاً عن الأصدقاء الذين كان يجتمعُ اليهم في البيت.

إنه سيّدٌ حقيقيٌّ، أنيقُ اللباس.

لقد بدا لي أنه في الخمسين من عمره. ولا أزالُ أتذكَّرُ الى الآن بَسْمَتَهُ الصارمة، الخبيثة التي كانت تكشف عن أسنانٍ ضخمةٍ، ناصعة البياض، حادَّة جداً... أسنانٍ لا يدري من يراها، أهي أسنانٍ كلب فَغَر فاه ليعضَّ من رآه، أم اسنان إنسان.

وبعد أن تكلّم، بالانجليزية، بضعَ لحظات، انتقل الى الكلام بالفرنسية،

وقال:

- «إذاً، ها هو الصبي ريمي؟ إنه يتمتع بصحة جيدة؟»

ثم صوَّب نظرَتَهُ الثاقبة إليَّ، مبتسماً ابتسامةً خبيثة، كأنه يهمُّ بأن ينهشَني بأنيابه.

ثم عاد الى حديثه مع أبي بالانجليزية؛ وبعد ذلك خرجَ الاثنان معاً. وبعد زمن طويل، عاد أبي وَحْدَهُ، وترك لي

الحريةَ في الخروج الى النزهة.

ورُحْت أبحث، في المركبة، عن رِدائي الصوفيّ؛ فإذا بي أجد ماتيا قابعاً فيها؛ وسُرْعانَ ما وضع سبّابَتَهُ على شفتيه، وهمس لي:

– «أُخرُجْ أنت أولاً! لا تُغلق الباب! وأنا سأَتْبَعُك... يجب ألاّ يدري أحد بأني كنتُ هنا.»

وخرجتُ اتجوَّلُ في الشارع؛ وتبعَني ماتيا على آثاري، فأخذ بذراعي، وقال لي، ونحن نمشي:

– «هل تدري من كان بالقرب من مَرْكَبَتِنا في اللحظة التي كنتَ تُحَدِّث فيها أباك؟ إنه السيد «جيمس ميليجان» عمُّ صديقك «أرتور»!

لبثْتُ واجماً، دون أن آتي بحركة... ووقَفْتُ جامداً في الشارع؛ ولكن ماتيا قادني، وهو يُكْمِل:

– «إن أباك، دخل مع هذا السيد الغرفةَ الكبرى. كنتُ لا أزالُ هناك؛ لأنني عزفتُ عن الخروجَ إلى النزهة بدونك. وهناكَ، سَمِعْتُ كلَّ ما قالاه...»

وسأله أبوك:

– «كيف حال ابن أخيك؟»

أجابه السيد:

– «بخير؛ انه في طريق الشفاء. وكلَّ يوم، يزداد صحةً؛ وقد استطاعتْ أُمُّهُ أن تنقذَ حياتَهُ بعنايتها الفائقة... إنها امرأة رائعة؛ هذه السيدة ميليجان.»

وحين سمعتُ هذا القول، أرهفتُ أُذُني بعناية، لألتقط بقية الحديث العجيب منهما.

ثم قال أبوك:

– «ولكن... إذا تماثلَ ابنُ أخيك للشفاء فلماذا تحاولُ إخفاء الولد؟»

فأجابَ السيِّد:

– «إنهم لا يَدْرُون ما يكون. أنا لا أستطيعُ أن أرى أرتور على قيد الحياة. لأنني، بموته، سأرثُ ثروته كُلَّها... كن حذِراً!»

فقال أبوك:

– «كُنْ مطمئناً من هذه الناحية!»

كم أدهَشَني هذا الحديث! لقد كان له وَقْعُ الصاعقة عليَّ...

ماذا أصنع الآن، بعد أن تكشَّفَتْ أمامي الحقيقة؟

فكّرْتُ أن أطلبَ إلى أمّي عنوانَ هذا السيد

« ميليجان » ولكني تردَّدْتُ؛ لأَنَّ من الجنون أن أفعَلَ ذلك.

يكفيني أنني عرفتُ الآن أن أرتور لا يزال حيّاً.. ان هذا النبأ رائع...

ولكن ماذا يمكنني أن أصنَعَ في هذه اللحظة؟

٢١. العودة الى فرنسة

وكانتِ الأيامُ تكرّ...

الربيعُ عاد بموكبه الزاهر، وقد آنَ لنا أن نغادِرَ لندن إلى البريَّة.

ولكني أنا وماتيا قرَّرنا ألا نذهَبَ الى البرية؛ وجعَلْنا فرنسة غايتَنا من خروجنا.

لم نكنْ سعيدَينِ مع أُسرة « دريسكول ». والآن أَصبحتُ مؤمناً بأنهم ليسوا بأهلي.

وقَبْلَ أيامٍ من سفرنا، لقيَ ماتيا في الشارع مُرَوِّضُ كلابٍ، سبق أن عرفه من قبل. فسألتُ صديقي:

– « من هذا؟ »

– « إنه « بوب » الذي علّمني الانجليزية. إنه صديقٌ حقيقيٌ. وبامكانه أن يَنْفَعَنا في هذه الأزمة. »

وذاتَ مساء، لم نَعُدْ الى البيت. كان بوب قد أعدَّ لنا عربةً تقودُنا إلى الميناء. وكان أحدُ إخوتِهِ يَمْلكُ سفينة، تستطيع نَقْلنا إلى فرنسة.

هكذا قال، وهكذا كان.

وسافَرْنا بدون مَصاعب!

وما هي إلا أيامٌ حتى وجدنا أنفسنا على أَرْض فرنسية.

كم كنا سعداء! كم رُحْنا نعبث ونَمْرَحُ في غبطتنا!

وكانت عند ماتيا فكرة أَطلعني عليها:

إنه يريدُ أن يقابلَ السيدة « ميليجان ». ومن أجل هذا، كان علينا أن نمشي على طولِ الأنهار والأقنية. وإذا خاننا الحظُّ، هذه المرة، كان الإخفاقُ مصيرَنا النهائيّ.

ولَقَدْ أَرَدْتُ أنا أن أُعرِّج على مدينة « دروزي » لأرى صديقتي الصغيرة « ليزا ». وهكذا اتّجَهْنا نحو الجنوب.

يومان... ويوم آخر، وساعات أيضاً!

وذاتَ صباحٍ وَصَلْنا.

هذا هو بيتُ عم « ليزا » وعمَّتِها، وَوَثَبْتُ الى البيت، وَقَرَعْتُ البابَ بلهفة.

وإذا بامرأة لا أعرفها تفتح الباب.

سألناها:

- «السيدة سوريوت، عمة ليزا، أين هي؟»

أجابتنا المرأة:

- «لقد سافرَتْ إلى مصر، بعد موتِ زوجها، لتقوم بخدمة أولاد أُسرةٍ غنيةٍ هناك...»

- «والصغيرة ليزا!»

- «حَضَنَتْها سيِّدةٌ انجليزية، تقيم دائماً على ظهر سفينة... ولكن، قل لي: هل أنت ريمي؟»

- «أجل، أنا ريمي.»

- «إن هذه السيدة الانجليزية، حين رأت متاعب العمة، أشفقَتْ على الصغيرة، وحملَتْها معها الى السفينة التي تدعى «الإوَزّة»؛ ثم تركَتْنا العمّةُ مُطْمئِنّةً على صغيرتها. وبقيتُ أنا وزوجي في هذا البيت.

والسيدة الانجليزية - السيدة ميليجان - أوصتني بأن أَطلب إليك أن تلتحق بها في سويسرة، في مدينة «ڤرڤي».

وأمّا بشأن ليزا، فأنا لا أزالُ انتظرُ منها رسالةً تشرح

لي أحوالَها وتبيِّن لي عنوانَها. ولكنَّ هذه الرسالةَ لم تصِلْ حتى الآن.»

لبثْتُ جامداً، واجماً في مكاني!

ولكنَّ ماتيا كان أسرَعَ مني الى الردَّ عليها:

- «شكراً لكِ، أيتها السيدة!»

والتفت إليَّ قائلاً:

- «ريمي! إلى الأمام!»

٢٢. وأخيراً، في الأسرة

اتّخَذْنا طريقَنا، مُتّبعَيْنِ مجرى نهر «الرون».

كان ماتيا مسروراً بهذه الرّحلة؛ لأن سويسرةَ مجاورةٌ لايطاليا. وقد يُقَدَّرُ لَهُ في يوم من الأيام أن يسافرَ فيلقى أهلَهُ فيها.

وذاتَ يومٍ، وأنا متلفتٌ الى النهر، عرفت السفينةَ المنشودة، راسيةً في ناحية من نواحي النهر.

ولكنْ، لم يكنْ فيها أَحد.

سألْنا مَنْ حولنا هل يعرفون عنوان السيدة «ميليجان» التي غادَرَتْ سفينتها هذه؟ ولكنَّ أحداً لم

يستطعْ أن يعطينا الخبرَ اليقين.

وأخيراً، انتهينا إلى مدينة « ڤرڤي »، وانها لمدينةٌ كبيرة، فرحنا نتنقّل فيها من شارع إلى شارع، نطرُقُ بابَ كلِّ فندق، سائلين عن السيدة « ميليجان ».

وفي كلّ مرة، كان يصدِمُنا الجوابُ بالنفي.

أَخَذْنا نَفْقُدُ من جرأتنا وقُوّتنا. وكاد اليأسُ يَعْصِفُ بأنفسنا.

وفجأةً بَلَغْنا، ذاتَ يوم ، بيتاً تحيط بهِ حديقةٌ غنّاء، ويطوِّقُهُ جدار. فجلسنا على الطريق.

قال ماتيا:

– « لنُغَنِّ قليلاً! إن الغناء يُنْعِشُ النفسَ وينشِّط القلب. »

لقد كان ماتيا على حق؛ أما أنا، الذي كانت صورة ليزا لا تبرح خاطري، فبدأتُ أُردّد أُغنيةً طالما أَحبَّتْ سَماعَها مني!

وما هيَ إلا ثوانٍ، وكان قلبي يَخْفُق، حتى سمعْت صوتاً خفيضاً، ضعيفاً، يكمّل هذه الأغنية.

لم أُصدِّق أن صاحبةَ هذا الصوت هي ليزا.

فركَضْنا، أنا وماتيا، كالمجانين، نحو باب الحديقة؛ فإذا بنا وجهاً لوجه أمام ليزا التي أَقبلَتْ تَفْتَحُ لنا.

دَخَلتُ المنزل، وفي مكانٍ قصيٍّ، وَجَدْتُ السيدة « ميليجان» وابنها أرتور.

ولكنْ، في اللحظة التي ركضْتُ فيها نحوها، شاهَدْتُ... ذلك الرجلَ ذا الأسنان الطويلة، الذي رأيتُهُ، من قبل، في لندن يقابل « دريسكول ».

وفي الوقت نفسه لَمَحَهُ ماتيا.

كان هذا الانسانُ نفسُهُ جالساً بالقرب من أصدقائي، وهو يكلِّمُهم.

أخذتُ بيد ليزا! وقلت لها:

– « ليزا! ان هذا الرجل، هناك، يجبُ أن لا يراني! »

ويبدو أنها لم تَفْهَمْ قولي.

فكرَّرْتُ لها القول:

– « إذهبي يا ليزا! ودَعيني وَحْدِي، خشيةَ أن ينالني سوء. وغداً الساعةَ التاسعةَ، تعالَيْ إلينا! »

وتوارَيْنا على عجل، بينما راحت ليزا تُغلق باب الحديقة، وهي حزينة.

وعلى بعد أمتار من البيت، قال لي ماتيا:

- « هل تعلم؟ يجب علينا ألاّ نؤخرَ الى غدٍ اجتماعنا بالسيدة « ميليجان » لنروي لها كل ما نعرف. »

- « وهذا السيد « ميليجان » الذي رآنا هناك؟ »

- « إنه لم يَرَني قَطّ، ولم يَعْرِفْني من قبلُ؛ لذلك لا خَطَرَ عليَّ إذا قابلتُ وحدي السيدة. لن أتكلّم عن أحد أمام السيد ميليجان ».

لقد كان ماتيا على حق. وتركتُهُ يذهبُ وَحْدَه؛ ورحتُ انتظُره تحت شجرة ضخمة تواريني عن الأنظار.

وخيّل إليَّ أن وقت غيابه عني قد طال... ولكني رأيتُه يعودُ مع السيدة « ميليجان ».

ركضْتُ نحوها؛ فتلقّتْني بين ذراعيها، وعانَقَتْني.

تلك هي المرةُ الثانيةُ التي تعانقني فيها. ولكني هذه المرة، شَعَرْتُ بفيض من الحب، يتدفّق على كلماتها العذبة. قالت لي:

- « ولدي! ان ما عرفتُه بشأنك، هو على جانب عظيم من الأهمية، لك ولنا. لذلك ينبغي أن نحترس. وأنا أنصحك أنت ورفيقك بالابتعاد. ان بقاءكما هنا، هذا اليوم، يعرِّض حياتكما للخطر... إذهبا سريعاً إلى فندق

« الألب » حيث تجدان رجلا يَحْجُزُ لكما غرفة تنزلان فيها. وهناك نَتَدَبَّر أمرَنا. »

وعانقتني من جديد، وغابت عنا!

وسألتُ ماتيا:

- « ماذا قلت للسيدة عنا؟ »

ولم يجب صديقي بكلمة.

انطلقنا معاً، نحو الفندق المذكور... فندق « الألب ».

وفي اليوم التالي زارتنا السيدة « ميليجان » في الفندق.

كان معها خيّاطٌ أعدَّ لنا ثياباً جميلة. وقد قصت علينا أنباء « ليزا » التي فَحَصَها الطبيب، وأَحسَنَ علاجها، حتى أَشرفَتْ على النطق.

ولم تَخُضْ معنا في أيِّ موضوع آخر.

وبعد أربعة أيام، زارتنا مرةً أُخرى، ولَبِثَتْ معنا عدةَ ساعات. أما أرتور فقد تماثلَ للشّفاء بفضل عنايتها.

كان وجهُها يطفح بالسعادة؛ ولكنها لم تتناوَلْ أيَّ موضوع آخر.

وأخيراً، في اليوم الخامس، جاءنا رسولٌ منها، قادنا معه في عربة إلى منزل السيدة « ميليجان ».

دخَلْنا الحديقة أولاً. ثم دخلنا أنا، وماتيا، و « كابي » في بهو رحيب، كان فيه أرتور وأمه وليزا.

وعانقتني السيدة « ميليجان » وقالت لي:

- « وأَخيراً، جاءت الساعة التي يجب أن تأخذ فيها موضعك! »

لم أَجدْ فرصةً لأَردَّ عليها بأيةِ كلمةٍ.

ودخلتِ الأم بربران، ذاهلةً... فما كان مني إلا أَن طرحت نفسي بين ذراعيها.

عانقَتْني بلهفة، ووضَعَتْ على الطاولة صُرَّةً تحتوي على ثياب طفل صغير.

وخلال ذلك، أَمرتِ الرجلَ الذي صاحَبَنا من الفندق بشيء، وسمعتُه ينحني عليها، يحدِّثها عن السيد جيمس ميليجان.

وحين شاهدَتْني شاحبَ اللون، التفتت إليَّ قائلةً وهي تبتسم:

- « لا، لا تَخَفْ! »

وفي هذه اللحظة، فُتِحَ الباب، ورأيتُ السيد « جيمس ميليجان » يدخل علينا.



وركضت نحوها فتلقّتني بين ذراعيها...

لم أُشاهد أسنانه، من قبل، بمثل هذه الحِدَّة، ولا ابتسامتَهُ بمثل هذه البشاعة. ولكنَّ هذه الابتسامة، لم تلبَثْ، بعد أن وقع ناظره عليَّ، أن استحالتْ نظرةً تتّقدُ بالغضب.

ولم تترك لَهُ السيدة « ميليجان » فرصة للكلام:

- « إني دعوتك لأقدِّمَ لك ولدي البكر، الذي غمَرَ لقاؤه قلبيَ بالسرور. هذا هو... لقد سَبَقَ لك أن رأيتَهُ في لندن، في منزل ذلك الرجل المجرم الذي سرقَهُ مني، بناءً على أمرك... إن هذا الرجلَ قد اعتَرَف بكل شيء... وكتب لي رسالة يشرحُ فيها كلَّ ما كان، وكيف أُقدَمَ على سرقة ولدي بطلب منك... هذه هي رسالتُهُ. وهو يشرح فيها كيف مزَّق ثياب ولدي، وشوَّه أطرافها، ليغيب اسمه عن كل انسان... هل تريد أن تقرأ هذه الرسالة؟... هل تريد أن ترى هذه الثياب؟ »

انتفَخَتْ أوداجُ السيد « ميليجان » غضباً، وأجاب:

- « سوف نرى ما يقرِّرُهُ رجال العدالة في الأمر. »

- « يمكنك أن تمضي الى مجالس هؤلاء الرجال. ولكنّي لن أَقودَ اليها، بيدي، ذلك الرجلَ الذي كان شقيقَ زوجي. »

وازداد وجه السيد « ميليجان » شحوباً.

وخرج دون أن يفوه بكلمة.

وحينئذٍ، ارتميت بين ذراعَيْ أمي الحقيقية، ثم عانَقْتُ أخي أرتور. والتفتُّ إلى ماتيا الذي ظلَّ صامتاً وقلتُ:

- « والآن لقد عرفت كل شيء! »

وقصَّ عليَّ ماتيا ما كان سمعه في لندن.

وصرَخَتْ أُمي:

- « يا صغيري ريمي! إنما أردتُ أن أتق بأنك حقّاً ولدي؛ والأم بربران التي حمَلَتْ إليَّ هذه الثيابَ الصغيرة التي كانت عليك، يوم سرقوك من بين يديَّ، أَرَتْني أنني لستُ بمخدوعة... والآن، ستقيمُ مع أُمك إلى الأبد. أنت وأخوك والأم بربران، وليزا، وماتيا الذين أحبوك بقلوبهم، يوم كنتَ طفلاً شقيّاً، طفلاً بدون أُسرة.

• • •

وكرت الأيام؛ وجاء ذلك اليوم الذي اقترنتُ به بليزا، كما اقترن أخي أرتور بأُخت رفيقي ماتيا، التي قدمت لزيارتنا. وتبادل الاثنان الحب.

أما رفيقي الصغيرُ الايطالي « ماتيا » فقد أصبح فناناً كبيراً، له شهرةٌ عالمية في الآفاق.

وسكنّا معاً، سُعَداء، في منزل الأُسرة الصغير الذي

كانت تملكُهُ في انجلترا.

وآنْصَبّ اهتمامُ الأمّ بربران على ولدي الأول.

كان ماتيا كَثير الأسفار؛ ولكنّه لم يَعُدْ يمشي، كما كان يفعل، على الطُّرق الطويلة.

كان يأتينا، بين الحين والحين، زائراً، حين يزورُ لندن للعَزْف.

في ذلك المساء، اجتمع شمل الأُسرة كلها...

أَحقٌّ ذلك؟

لا، إنَّ معلِّمَنا العزيز فيتاليس غائب عنّا.

ما كان أَشدَّ سرورنا لو أنه كان بيننا الآن!

إذاً، لقضى شيخوختَهُ بيننا، هادئاً، مطمئناً.

أيها المعلِّم الحبيب! لن أنساكَ أبداً. كنْ على ثقةٍ بكلامي!

لئن كنتُ ذلك الطفلَ الهائمَ على وجهه بدون أُسرة، فإنني لم أفقُدْ يوماً شجاعتي.

ولئن أصبحتُ رجلاً حقيقياً، في هذه الحياة، فإن الفضل في ذلك إليك يعود!

انتهت

المكتبة العالمية
للفتيات والفتيان

طفل من غير أسرة

